

محمد شكري

زعن الأخطاء

سيرة ذاتية روائية



محمد شكري

الثمن 30 درهم



لتحميل المزيد من الكتب

تفضلاً بزيارة موقعنا

www.books4arab.me

- زمن الأخطاء - محمد شكري
- الطبعة الثانية
- الإيداع القانوني: 31-1992
- جميع الحقوق محفوظة
- الغلاف: أحمد جاريد
- مطبعة النجاح الجديدة

محمد شكري

زمن الأخطاء

سيرة ذاتية - روائية

أخطاؤك التي تجها

محمد برادة

عزيزنا شكري

كيف أشكرك على هذه الهدية التي كنتُ أنتظر وصولها وأنت تتكلّأ في إرسالها: زمن الأخطاء؟ منذ بداية الثمانينات وأنا أنتظر، بعد أن نشرت منها بعض فصول ثم انصرفت عن الكتابة لتلاحق الحياة وأوهامها، لاهثاً وراء اللحظات المضيئه وسط رنات الكؤوس وقهقات السكارى، محتضناً في آخر الليل رماد الكلمات والبسملات واعترافات المحبطين. كنت أعرف أن صفحات «زمن الأخطاء» ستتنامي خلسةً داخل «أناك» الآخر، المستر، الذي لا يتعش إلا بالكتابة، ولا يتضرر سوى عودة الطائر الهارب من مواجهة الورقة البيضاء ليطل برأسه ويقنعك بأن الكتابة هي خلاصك الذي تُسرف في الإعراض عنه.

لكن، هل حقاً أنك لم تكتب طوال السبعينات والثمانينات؟

طرحت على نفسي هذا السؤال وأنا أعيد قراءة بعض رسائلك إلى خلال تلك الفترة: صفحات كثيرة تنبض بمشاعر القلق والوحدة و «عشق ما لا يمكن أن يكون»؛ وكنت تكتبها تحت ضغط داخلي لا تستطيع له دفعاً. أحياناً في آخر الليل وأحياناً داخل مقهى، في أسلوب تلقائي ولغة متداقة (تستقر بعض كلماتها) وتفسح فيها المجال لذكراتك وقراءاتك ومشاهداتك. وفي ثنايا كل ذلك تلمع حكم «شكريّة» مترجل فيها المرارة بالسخرية والاعتراض بالذات، مثل قوله في إحدى الرسائل «كل سكارى تنكر والي إلا الذين مازالوا ثمالي بخمرتي» (12-1-1982). من خلال تلك الرسائل، إذن، تأكّدتُ بأن علاقتك بالكتابة لم تقطع لأنك كنت تعيشها كحالة دائمة، كامنة ومؤرقة وكانت تحايل عليها بكتابه رسائل إلى بعض أصدقائك.. وأحياناً تبرر عدم استجابتك لأنّا العميق قائلًا:

«يخيل إليّ أنني عشت دهراً. في الحقيقة أنا لم أبدأ بعد عزّة الكتاب الحقيقيين. إذا بدأتها فربما سن أخرج منها. أتمنى ذلك» (11-5-1980). إلى أين تهرب من الكتابة وأنت لم تجد سواها يوم ضاقت بك الدنيا وحاصرتك البلاء فلنجات إلى مستشفى الأمراض العقلية (مايوركا، تطوان) في بداية ديسمبر 1977؟ كانت تصليني منك كل يوم، تقريباً، رسالة تُنفس بها عن غيظك وغضبك، إلا أنك، في الآن نفسه، تلتقط مشاهد رائعة ومسليّة من حياة «المجانين» والمنهارين عصبياً والباحثين عن تواصل داخل المستشفى بعد أن حُرموا منه وسط الأحياء - العقلاء. وفي إحدى تلك الرسائل أقرأ: «الإحساس بالكتابة بدأ يغزوني في هذا المارستان. عندما أخرج من هنا سأحاول أن أغير حياتي» (18-12-1977). ليس مطلوباً منك أن تُغير حياتك وإنما أن «تكتب حياتك». تكتبها، مثلما فعلت في «الخبز الحافي»، فتتغيّرها وتغيّر حيوات الآخرين، ليس نحو «الأفضل» (من يزعم القدرة

على ذلك؟)، وإنما من خلال تلك اللعبة الجميلة، الفاتنة، عندما نجري وراء عمر كأن اسمه حياتنا، نجهد في الإمساك به فَيُمْعِنُ في الإفلات، وَتُسَائِلُهُ فَيُلْاحِفُ الصمت، ولا يتبقى لنا - بالنعمة الكتابة! - إلا أن نُحْوِرَ ونُضَيِّفَ، مارسين حرية تكشف عن المholm به والمكتوب والمؤمل. لا أحد، خاصة من بين الذين يكتبون، يعيش حياة واحدة. قد يكون موتنا واحداً لأنه يُبَدِّل المخيلة والكلمات والشهوة، ولكن الحياة نهر كاسح، متجلداً، متلوّناً، يغرينا بالتعدد والبهاء ويرغمنا على التغيير والنسيان.

لكنك أيضاً، فضلاً عن حفاظك على علاقتك «السرية» بالكتابة عبر رسائلك، فإنك «تحكي حياتك» باستمرار لأنها جزء لا ينفصل عن إدراكك للعالم وللآخرين، ولأنك لا تميل إلى التجربة ما عشت لتحقق في أجواء التحليلات... والذين يعرفونك يدركون تلك الطاقة لديك على «تحكي حياتك» وإدماجها في الحاضر، حاملاً في كل مرة، تفاصيل جديدة أو وقائع لم يسبق لك أن كتبتها أو حكيتها... هذا ما يجعلني مرة أتساءل مع نفسي : هل شكري يراجع ، قبل أن ينام كل يوم ، وقائع حياته ومشاهداته لتسعفه عندما يستحضرها؟ أم أن قوة ذاكرته وتتنوع تجاريها هما اللذان يُسْهِلان عليه تأثير فضاءات الأسمار ومسارات الأصدقاء؟

هكذا ، تحكي حياتك قبل أن تكتبها ، وعندما تكتبها تأتي مفاجيرة لما حكى شفويأ . وما تحكيه لا يُطابق «أصلاً» لأن الكلمات والإشارات وسياق الكلام تخلط المعيش بالتخيل فلاتكاد تميّز ما وقع ذات يوم عمّا يمكن أن يحدث الآن أو غداً بطنجة أو تطوان أو العرائش وأين تقع «حياتك» من كل ذلك؟ داخل الحكي الشفوي أم داخل الصفحات المكتوبة؟ بل لعلها خارج الدائرتين معاً ، لأنك لم تُعطنا سوى طرساً مُهياً لاستقبال المزيد من الحكي والكتابة . بعد قراءتي الأولى لـ «زمن الأخطاء» ، لفت نظري ابعادك من

الصوغ الروائي لسيرتك، مثلما فعلت في الخبر الحافي، ولجوؤك إلى كتابة شذرية تحمل عنوانين فرعية وتشكل مجموعة من التوافذ والكتوي نُطلَّ عبرها على مشاهد، وأحداث، فضاءات، وحيوات تلتقطها عيناً شخص يجهد في أن يُلْغِي المسافة الزمنية الفاصلة بينه وبين ما عاشه ذات يوم. ولبلوغ ذلك، حرصت على أن تَجْنَب استعمال فعل «كان» مُمُكِّن، لتوهمنا بأن ما تحكى به حاضر باستمرار أو هو مستقبل محتمل. كأنك تحول الماضي إلى حاضر لتعيش داخله، مُناغيَا الشخوص، مُلَامِساً للأمكنة، مشيداً من تلك المشاهد جزيرة تلجم إليها عندما تضيق بواقعك اليومي المكرور. حتى عندما تلتتصق بما «حدث» وتُنَقِّله في اقتصاد مقتضي، فإن ما ترويه ينفلت بعيداً عنك ليتصبب مستقلاً، مستفزاً لخيالنا وتواطئنا:

«... تقىأ تلميذ بقايا زيتون فقال واحد منهم:

- إنه يأكل الزيتون مع أبيه السكير يا أستاذ.

باس تلميذ تلميذة فكانت مشكلة. ولكي أردّ لها الاعتبار أمرُّتها أن تَبُوسَه هي أيضاً ففكَّتْ عن البكاء...» ذلك أن تحريرتك معلماً داخل الفصل لا يمكن أن تشخصها تلك الكلمات فقط بل تنضاف مخيلتنا إلى السارد ل تستحضر مشاهد متعددة لـ«الواقع».

على أن ما أعجبني وأمتعني في «زمن الأخطاء» هي تلك الصفحات التي ترسم فيها بعض علاقاتك مع النساء، وكذلك «البروفيلات» التي خططتها لشخصيات أجنبية هامشية عاشت في طنجة: روساريو، سارة، باترسيا، لوشو فالبي.

في علاقاتك النسائية، شيء ما، قَدَرْ قَاسِ، يدفعك دوماً إلى أسفل ويتحول بينك وبينك أن تعيش تجربة حبٌ مكتملة بملء عواطفك وجسداً ينبع منك، فتظل مُنشطرأ: المتعة الآنية والجسد للعاهرات، أما الحب فهو دائماً عندك في دائرة «ما لا يمكن أن يكون» تُجهضه نرجسية مفرطة أو خوف من العذاب أو مثالية رومانسية:

«... لم أسمع حتى الآن لاي عاطفة أن تخونني. لقد عشت دائمًا في حالة طوارئ. ما أحبيت إلا ما كان هاربًا، فالحب، مثلاً، لا يسحرني إلا إذا كان أسطوريًا: أتحدث عنه دون أن أمسه أو أعاشه...». هكذا لن أفهم أبدًا لماذا تعطلت قصبة حب ممكنة وفاتنة بين شكري «ولد السوق» الذي أصبح متعلمًا وبين فطيمة (أم سلوى) سيدة البار التي استدعته للعشاء في بيتها وقدمنت له طفلتها ليراجع معها دروسها... ومن قبل فطيمة، كنزة الموسم التي أشعلت الفتيل في قلبك ثم رفضت الاستجابة لحبك... لكنك، خلافاً لصديقك الأعمى المختار الذي كان يتحصن بـ«الحب العذري»، كنت تدفن حبوب العواطف في المتع «الملموسة» والمغامرات العابرة، قبل أن تتبَّعه إلى أن العالم الذي كونته في مدينة العرائش، خارج المعهد، قد تزلزل. ليس لك من مأوى (مثواك الأخير؟) سوى فضاء طنجة الذي تلبسك فسكته، وأغراك فأعدت صنْعه:

«... لو كنتُ في طنجة لما أحسست بهذا الفراغ الملآن. هناك أستطيع أن أولد من أكثر الأيام كآبةً وعوزاً بعض المتع. العزلة هناك حرّة لها مذاق التوت البري، هنا [العرائش] مفروضة لها مذاق الحنظل». هل أجازف فأقول بأنك عوّضت حب المرأة بحب طنجة أيها المتوحش الذي يخاف عتمة الدفء ويتشهي بشسوع البحر ولأنهائية المدى؟

أحببت أيضًا، كما أشرت، الصفحات التي رسمت فيها بروفيلات لشخصوص قابلتها أو عاشرتها فترة من الزمن. وأظن أن ملامح لوشو فاليري لن تتلاشى بسرعة من مخيّلة القارئ.

تححدث عنه وفي الآن نفسه تحدث عن نفسك لأنك تجعله مرآة محتملة لشيخوخة بشيسة يموت خلالها الكاتب، المبدع، الحالم، بالتقسيط. قال لك لوشو فاليري ذات مرة: «في بلاد المواعيد يموت الإنسان جوعاً»، وكانت تلك العبارة كافية لإبراز هشاشة الشباب

والمتع ومالذّ وطاب : «... ولكي أقوى وأعزي نفسي صرتُ أقول :
لن أشيخ سِيئاً ، عَنْدَمَا نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد (...)
صُرِّتُ أخْشى نهاية حياتي من خلال حياته...»

وأعتقد كذلك أن الصفحات التي عنونتها بـ «المنسون»
وحيثَت فيها مشاهد من إقامتك بمستشفى الأمراض العقلية بطنوان ،
وهي أيضاً من الصفحات التي لا يمكن أن تنسى ... ومثلها أيضاً
الفقرات التي تسخر فيها من نفسك بعد أن اجتازت عتبة النشر
وأصبحت كاتباً تنشر لك الصحف الوطنية !

عزيزنا شكري

قبل أن أختتم هذه الرسالة أشير إلى أن العنوان الذي اخترته
للجزء الثاني من سيرتك العاطرة لا يخلو من التباس محير : أخطاء
بالنسبة لمن؟ للآخرين أم بالنسبة لك؟ إذا كنت تقصد أخطاء الآخرين
في حقك فإننا سندخل في متابعة قبل أن تُحدد معنى الخطأ وعلى من
تقع المسؤولية في ارتكابه . أما إذا كنت تقصد أخطاءك أنت، فلا أظن
أن الأمر سيكون أسهل مادمت ترتكب الأخطاء التي تُغrieve الآخرين
وتجعلك تحس أنك أقرب إلى ذاتك وتلقائيتك . وفي هذه الحالة كان
عليك أن تجعل العنوان كالتالي : «زمن الأخطاء التي أحبها» .

ليس هذا مهمًا، على كل حال ، بل الأهم هو أن «تختلط» فتبدأ
عزلة الكتاب الحقيقيين وتعرض عن ضوضاء العيش الخارجي
وطقوسه المكرورة . يكفيك هروباً من الكتابة والتحايل عليها
بالرسائل والحكبي . آمل أن تصاحبها عبر الالتفات إلى الطبيعة .
ومحاورة ما اختزنته في الأعمق . أتذكر ما كتبته ، هنا ، : «... لم
يسبق لي أبداً أن استلقيت مثل هذا الاستلقاء المشرق ، المشجر . من
قبل كنتُ أجري تحت الأشجار ولا أتوقف تحت واحدة إلا لأقطف
ثمرها ، أما الآن فأنا أستظل وآكل من نضجها . إن الزمان لم يَعد

يوزّعني، صرتُ أحبّسه أينما أشاء...»
وعزلة الكاتب، عندي، هي قدرته وشجاعته على أن يواجه
بياض الورقة بانتظام ليخدها بكلمات تثير و تستفز وتُبدِي العالم
على غير ماهو. لكننا نريدك، في عزلك، أن تحفظ بتلقاءتك في
الحكى الشفوي وبشطحاتك التخييلية واللغوية عندما تكتب
الرسائل. هكذا أقوك، محوراً كلام الشاعر: «إن أجمل الصفحات
هي التي لم تكتبها بعد» فلا تبخل علينا بمثل مسرات «زمن
الأخطاء». مع تحياتي.

محمد برادة 1991/10/17

1

رائحة بدون رائحة

قدام الحافلة، التي نزلت منها، اقترب مني طفل متسمخ، حافي القدمين، في حوالي العاشرة من عمره.

- الفندق، أتريد فندقا؟

- سوق الكببات، أين سوق الكببات؟

- أتعني.

ينظر إلى وإلى حقيبتي البالية. أراد حملها. أعطيته خمسة سنتيمات إسبانية. تشاكرنا وانصرف. السوق عامر ببائعى المواد الغذائية والثياب المستعملة والجديدة، في الدكاكين وعلى ساحة السوق. هناك الرجالون والمتجلولون. الشمس تغرب. أصوات الإذاعات العربية تُسمع في الدكاكين. تمشيت في السوق بضم بضع دقائق. سألت باائع ثياب بالية عن قهوة السي عبد الله. أشار إليها بحركة سريعة، ولا مبالغة، ومضى ينادي في المزاد العلني بأثمان الملابس التي يتحمل

بعضها على كتفه، وأخرى في يديه . يسار مدخل القهوة حاجز خشبي معروضة عليه مأكولات : سمك وفلفل مقليان، بيض مسلوق وركام خبز أسود . الذباب ينط على الكل . قرب الوجاق، طاولة كبيرة مستطيلة، حولها أشخاص يلعبون الورق، آخرون حول طاولات أصغر، معظمهم يدخن الكيف . البوس باد على سحنهاتهم وثيابهم . اتبه بعضهم إلى . جلست في ركن . إلى جنبي طاولة صغيرة قدرة . طلبت من الوجاق شاياً أخضر بالنعنع . فكرت أنه السي عبد الله . كهل جالس فربى يبيع الكيف . ذكرني بعفionate في قهوة السي موح في طنجة . اشتريت منه لفة . عمر لي "شفقاً" (1) من مطويه . (2) كلما طلبت منه السبسي (3) يمده لي عامراً بكيفه ثم أرده عامراً بكيفي . يدخلته أو يعطيه لأحد الجالسين قربه (4) .

جاءني السي عبد الله بالشاي . سألته عن ميلودي صديق حسن الزيلاشي .

- لم يجيء طوال ثلاثة أيام .

في الليل غلبني الكيف، والجوع، والغربة . رشفت من كفوس شاي بعضهم ورشفوا من كأسى . أحسست بالألفة بينهم . حدثتهم عن تطوان وطنجة ووهان، وحدثوني عن العرائش . قال أحدهم :

- كيقولوا طنجة اللي ما شافاشي كتبكي عليه، واللي شافا كييكي عليها .

- إنها عريقة تهزم كل من يعشقها .

- العهر الفاحش قبح أجمل ما فيها .

- لكنها جميلة وتاريخها عريق .

تكلمت في الخروج لأفترش عمّا أكله . صورة الذباب، الذي رأيته عندما دخلت واحتفى الآن، ثمغبني، كلّيما فكرت في أن

أطلب شيئاً من مأكولات القهوة . في الغالب لا أقرف من أي طعام . أتعبني الجلوس ، والوجه التي فقدت حيويتها . النعاس يغلبني . أغمض عيني وأفتحهما بترابخ .. شاحباً يهدولي كلُّ ما أراه . ذهب أكثر من كان في القهوة . المقاعد والطاولات فقدت هي أيضاً وجودها . أقيمت نظرة على الحجرات الثلاث المقلفة . الحجرة قبل التي دخل وخرج منها أشخاص بائسون . الآخريان مقلفتان . بان لي الحصير الذي هو كلُّ فراش تلك التي فتح بابها . فكرت في أنَّ أَسْأَلَ السَّيِّدِ عَبْدَ اللَّهِ عَنْ ثَمَنِ النَّوْمِ فِي إِحْدَى هَذِهِ الْحَجَرَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ . كلاًً . يجب أن أوفِّرْ . لا أعرف ما يتظرني في هذه المدينة ! ربَّت على كتفي صاحب القهوة وأنا غافِ .

- سنغلق .

ثلاثة أشخاص يدخلون الكيف حول طاولة اللعب . رجوت السَّيِّدِ عَبْدَ اللَّهِ أَنْ يَتَرَكْ لِي عَنْدَهُ حَقِيقَتِي حَتَّى الْغَدَرِ . طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَكْشَفَ لَهُ عَمَّا فِيهَا : صورتان شخصيتان كبيرتان مؤطرتان ، سروال وقميصان وزوج جوارب .

همت في طرقات المدينة . لا أثر للحراس من رجال الأمن ، أو حراس متاجر الأحياء ، والسيارات ، كما في طنجة . منتصف الليل أو أكثر . تائهةً أمشي . لا شيء فيها يخيف . طقس معتدل وليلة قمراء . متزه يطل على البحر . أضواء تلمع في البحر . فكرت في ليل طنجة المغربي إلى حد الموت وصيدها البحري : "رأس المنار" ، "مالاباطا" ، "مفأور هرقل" ، "سidi قنقوش" ، "المريسة" ، و "الرمل قال" . أنا هنا وحدي . القمر ينحجب ثم ييزغ . قطفت زهرة بيضاء من روض المتزه . شمتها . لم يستيقظ في نفسي أي إحساس . زهور جميلة . شيء لا يفوح منه شيء . جمال سائب . ربما هذا ما يُعيقها مزهرة هنا حتى تذبل أو تُقطف ، عَيْثَا ، ثم تُدَسْ . لا شيء عندي أخشى ضياعه في هذه الليلة . إنني

مثل هذه الزهرة التي أسرح بها الأن بين أصابعه . سأناه هنا أو في أي مكان آخر . هواء البحر يخفف نعاسي .

عدت إلى الكبيبات . تقرّضت تحت سقية أحد أقواس الساحة .

وضعت رأسى بين ذراعي المشبكتين فوق ركبتي . طيلة يقظتي لا عابر أسمع خطواته في الساحة . لا خاطرة أستطيع استعادتها . حتى أجمل الألحان ، التي أحبها ، تخطر ثم تنفلت . ذهني خاو كما لو أنه مغسول : كأنني لم أختزن أية ذكرى مُستعقة لحملها . صداع خفيف في رأسي وطنين . يخيل إليّ أنني أسمع نبضات قلبي . ربما بسبب التخدير الكيفي ، وفراغ معدتي .

استيقظت باكرا . امتلاء مثانتي يؤلمني وشيشي منتصب . حركة الناس تدب في ساحة إسبانيا . اشتريت بسيطة من الشروس .

CHURROS [عجين مقلوي يصنعه الإسبانيون] في مرحاض المقهى الإسباني تصاعد بولي إلى فوق مثل نافورة . تبلّل سروالي ويدى . تناولت قهوة بالحليب . المقهى يرتاده المسافرون . قهوة السي عبد الله لم تفتح بعد . ركبت حافلة الحي الجديـد بحثاً عن مدرسة المعتمـد بن عبـاد . حـي مليء بنبات الصبار ، والغبار ، والأزبال ، والأراضـي الـبور . مساـكه أـكواخـ من قصـدير وطـوب وأـهله يـدوـيون . سـحنـاتـهم كـالـحـةـ مثلـ أـسـمـالـهـمـ . أـطـفالـهـمـ يـتـغـوـطـونـ وـيـبـولـونـ قـرـبـ أـكـواـخـهـمـ .

أـجـابـنيـ حـارـسـ المـدـرـسـةـ الـذـيـ سـأـلـتـهـ عـنـ مـقـابـلـةـ المـدـيرـ :

- لما تـرـيدـ مـقـابـلـتـهـ ؟

- أحـملـ إـلـيـهـ رسـالـةـ .

- هـاتـهـ .

- أنا مـرـسـلـ لـتـسـلـيمـهـ الـهـ فـيـ يـدـهـ .

نظر إلى كمن أهين فيما تعوده ثم مضى ليـتـشـيرـ المـدـيرـ أوـ يـعودـ كـاذـبـاـ عـلـيـ . عـادـ وـأـدـخـلـنـيـ عـنـدـ المـدـيرـ . سـلـمـتـهـ رسـالـةـ التـوـصـيـةـ الـتـيـ اـنـدـعـكـ ظـرـفـهـ فـيـ جـيـيـ . أـذـنـ لـيـ أـنـ أـجـلـسـ وـرـاحـ يـقـرـأـهـ . يـتـسـمـ .

ماذا يُسمّه؟ أیكون حسن قد خدعني ساخراً مني؟ وضع الرسالة فوق اضيارة مكتبه وسألني " .

- من أين أنت :

- من الريف .

- وأبوك أين يسكنان؟

- أمي تسكن في تطوان وأنا جئت إلى طنجة لكي أَدْبَرَ عيشي .

- وأبوك؟

- مات . (أبي سيموت في صيف 1979 ، بعد 23 سنة.)

- وماذا كنت تعمل في طنجة؟
ها هو التحقيق يبدأ .

- أعمل كل شيء .

- كيف أنك تعمل كل شيء .

- أحترف أي عمل أجده .

- هل سبق لك أن دخلت المدرسة؟
لهجته جبلية .

- أبدا .

لقد وقعت في فخ . الدم يندفق إلى رأسي بعنف . حسن لم يحدثني عن هذا الامتحان - التحقيق .

" انك ستسسلم الرسالة إلى المدير وسيقابلك في مدرسته . " هذا ما قاله لي . جنبيني يعرق . قطرات بازدة أحسها تتدحرج من أبيطي .

- آسف .. لا أستطيع قبولك في هذه المدرسة . من الأحسن أن تعود إلى طنجتك . هناك يمكنك أن تكسب غيشك كما كنت تفعل .

- لكنني أفضل أن أدرس . لقد كرهت ما كنت أعمله في طنجة .
شبك يديه فوق مرآفة مكتبه . تأمل رسالة التوصية .

رفع رأسه :

- كم عمرك ؟

- عشرون .

- هل تعرف ما فعله حسن هنا في العرائش منذ أيام ؟

- لا .

- لقد وجدوه مخموراً في المسجد مع صديق له . إنهم الآن
مطرودان من المعهد .

قلت لنفسي : أما أنا فلن أتناكر مع أحد . فيما بعد سأعرف
أنهما كانوا ينامان في علية المسجد التي ينام فيها التلاميذ الذين لا منحة
ولا مأوى لهم . حسن غرّ بي إذن . أجبت المدير بلهجة من يدافع
عن تهمة وجهت إليه خطأ :

- أنا لست مثله . (ابتسם) لا أعرف أنه فعل ذلك . ان ما فعله
حرام .

في الواقع لم يكن يهمني ما فعله . في طنجة قال لي : " أنا
ذاهب إلي تطوان ثم سأعود إلى العرائش . "

- آسف . ان القسم الدراسي الذي تستحقه يدرس فيه أطفال
وأنت لك لحية ، والذين هم أكبر منهم سنًا يحفظون معظمهم القرآن ،
والجاروية ، وابن عاشر .

(معك حق .ولي لحية أخرى في أسفل بطني .) لست وجهي
بتلقائية . لم أحلقه منذ أيام ، وكنت أحلقه كل يوم عسى أن تُطبع
الممتتعات .

فكرت لنفسي : ان الأنبياء لم يكونوا في حاجة الى من يعلمهم .
كل شيء كان ينزل عليهم جاهزاً . أما كل أحد فينبغي له أن يتعلم
من مثله مثل القرود .

قال بهدوء قاتل :

- آسف .

رن الجرس . من خلال نافذة المكتب أرى الساحة والتلاميذ يتسابقون على المرابحين والصنابير . يتدافعون . يتقاتلون . تخيلتني بينهم . فاتني أن أكون واحداً منهم . دخل شخص متعرج حاملاً كتاباً . طلب منه المدير أن يصحبني ليتحتني في الرياضيات . ان وقت الدینونة جاء . هكذا فكرت . تبعته إلى حجرة درس شاغرة . أعطاني طبشوره وأملأى عليّ أرقاماً . لا أعرف كيف أكتب أرقاماً في وسطها أصفار . أكيد أخطأت عندما أملأى عليّ أرقاماً أخرى أضعها تحتها بالترتيب ، طالباً مني أن أجمعها ، ثم أرقاماً أخرى ، في نفس الوضع ، أن أطرحها منها . لم يسبق لي أن قمت بهذه العملية إلا في ذهني ثم أملأى عليّ أصفاراً ، وما أصعب الأصفار في الوسط !

عدنا إلى المكتب . لم أرتع إلى هذا المعلم . إن القرود تتلاطف فيما بينها ، أما هذا فلم يفعل . شعرت أنني بذلك مجهوداً كبيراً . أن أحمل خمسين كيلو غراماً من الثقل وأسيء به كيلومتراً أخفّ عليّ من بذلك هذا المعهد الذهني .

وجدنا مع المدير شخصاً لا بأساً الجلباب . سألني بالإسبانية عن اسمي ، ومسقط رأسي ، وسنّي ، وطنّيّة ، وما كنت أعمل فيها . أجبته فاستبشرت ملامحه :

- أين تعلمت الإسبانية؟

- مع جيراننا الغجر ، والأندلسيين في نطوان وطنّيّة . لم يكن متجهماً مثل معلم الحساب . فكرت في أنه ربما يدرس الإسبانية . قد يكون المدير طلب منه أن يتحتني شغويّاً . طلب مني المدير أن أرجع غداً .

مشيت عائداً إلى المدينة . سلكت طريقاً غير الرئيسية المعبدة ، المُزففة ، التي جئت منها ، الطريق مغبرة ، قدماء تغوصان في ترابها الرملي ، على جانبيهما سياجات من التين الشوكى ، وأكواخ يخرج

منها أطفال حفاة، أنصاف عراة، وسخون، وكلاب هزلية، لقيطة ودميحة، ودجاج ينقب الخراء، في نهاية الطريق بشر عارية معطلة، دنوت منها، أطللت على هويتها (5) المظلمة، صمتت عمقها أغراضي بالسقوط، صمتت أيقظ في نفسي كلّ يأسٍ : صمتني الأبدى، التقطت حجراً كبيراً جهّدت في حمله وألقيته في الهوية، سمعت دوي سقوطه في القاع الجاف ثم صمتاً، وأنا مطل على الظلام، ورائحة مقرفة، دافئة، مختزنة، تصاعدت من القاع . ابتعدت عن فوهة البئر الخنزرة . ظلل طنين السقوط في مسمعي لحظات، تخيلتني ذاك السقوط الأصمّ . لست حجراً . ربما سأظل أنزف في هوية البئر حتى أهدم . الأفعى ألا أموت . لست حجراً . استأنفت سيري . صوت السقوط يجذبني إليه بسحر قويٍّ وأنا أقاومه حتى أنقذتني شجرة انبطحت تحت ظلالها الوارفة .

كان شاب قد ألقى بنفسه على صخور ميناء طنجة . جاءت أمه من بادية الفحص وذهبت إلى المقبرة . قصت مأساة ابنها على الحارس .

شرح الكلمات الدارجة :

- (1) الشقف : يشبه كثبات الخياط في حجمه وشكله تقريباً، مقوس ذو فوهةين، أو هو يشبه النشرة الملتصقة حول أسفل ثمرة شجرة السنديان، وهو عادة يصنع من الفخار، وفي حالة نادرة من الألومينيوم، وفي حالة أشدّ من الذهب الخالص .
- (2) المطري : وهو محفظة صغيرة مستطلبة أو مربعة تصنع عادة من جلد الماعز أو غبوه، تلف مرتبين أو ثلاثة، ويتبع طرفها الذي تربط به بخيط من الجلد لشتمها، ومناك "النبولة" التقليدية وهي مثانة الكبش أو العجل، وكلتاها تستعمل لحفظ مسحوق الكيف .
- (3) السبي : هو قضيب يدخل طرفه الأسفل في فوهه لتدخين الكيف، ويصنع عادة من الخشب، لكن هناك من الموسرين من يصنعه من الفضة، وقد عرفت حشاشة، اغتنى ببيع الخشب، صنعه من الذهب الخالص، وهو اليوم يفضي معظم وقته يحذق في الشمس من شروقها إلى غروبها، بعد أن أفلس في تجارةه، وعاد إلى التدخين في السبي المصنوع من الخشب، إنه غالباًون الكيف .
- (4) هذه عادة معروفة بين مدحبي الكيف في المقامي الشعبية، وهم أيضاً يتداولون الرشقات من كروس بعضهم البعض برهاناً على التفهم وتصادفهم .
- (5) البئر بعيدة القرع جمع هوايا .

• لا أعرف شيئاً عما تحكيمه . لقد دفنا كثيراً من الأموات هذه الأيام . اذهب إلى المصلحة المسؤولة في العمالة عن تسجيل أرقام الموتى الغريراء . اذهب إلى عندهم وقصي عليهم حادثة موت ابنك . هناك «سيقولون لك رقم قبره إذا عرفوه». " يا لهذا الزمان . لم يبق من أبني الخيب عبد الواحد سوي رقم ، إذا عرفوه ! "

كانت امرأة بائسة . جاءت ورفعت وجهها المكدود إلى السماء ، وبكت ضارعة إلى الله أن يغفر لابنها أئمه . ندبته حتى أغصي عليها ثم أفاقت مهووسة بابنها ، وانصرفت عائنة إلى قريتها . تذكرت أن أمي هي أيضاً امرأة بائسة : تصلي من أجلني ، وتضرع إلى الله أن يحفظني من كل مكروره .
حين يفرّ السادة يوم العبيد .

عمال ومسردون يتجمعون في ساحة إسبانيا . الأصوات تصرخ في هياج :

- ليسقط الباشا .

- ليسقط الحزنة .

يندفعون نحو منزل البasha صائحين :

- اساطُ اباطُ، البasha تحت السباتُ : (الخداء)

كان باشا المدينة قد ذهب إلى سوق "ثلاثاء الريصانة" ، وألقى هناك خطاباً على الفلاحين . لم ير لهم خطابه فشتموه ورموا بالحجارة وضربوا بالهراوات فأطلق حراسه النار عليهم .

- لا بد أنه تكلم معهم بلغة ما قبل الاستقلال (1)

- انظر ، انهم يتكاثرون مثل النمل !

المسيرة بدأت في صخب : رجال ونساء وأطفال . " رجال النظام " (2) يحيطون بالمتظاهرين . ينظمون المسيرة والهتافات المعادية للباشا . شارة الرعاية المغربية على سواعدهم (3) تؤكد سلطتهم .

- لا أحد جاء من رجال الأمن .

- لا أظن أنهم سيعجّلُونَ . صدرت إليهم أوامر بعدم التدخل .
كل الناس يعرفون الآن أن الباشا ضدّ الاستقلال .
الأطفال يرددون نفس الهتافات المعادية للباشا التي يهتف بها الكبار . يطعنون في الهواء أشخاصاً وهمين صارخين . يتعلّمون القتل ب مختلف الأسلحة : حجر يتخيّلونه قبّلة ثم يرمونه في الفراغ : يوم، يوم، يوم . . . ! عصيّة تشكّل لهم خنجرًا أو مسدسًا، هراوة، بندقية أو رشاشاً . . . كانوا يتصرّفون أكثر عدوانية من الكبار . توّقفت المسيرة قبالة المنزل . هتافات :
- سلّموا أنفسكم .

طلقة نارية، في الهواء، من إحدى نوافذ منزل البasha . تراجع الجمّهور إلى الوراء . صاح أحدّهم :
- لا تخافوا . إنّهم يحاولون تخويفنا
آخرج "نظامي" مسدسا . آخر يحمل بندقية قديمة . يدخلان منزلًا مواجهًا لمنزل البasha . تبادل إطلاق النار من المنزلين (4). تفرّقوا . هربوا . عادوا . اصططفت، قرب منزل البasha، فوق الرصيف، فرقّة عسكريّة إسبانية يرأسها قبطان .
إنّهم خائفون . لا يقدرون أن يطلقوا علينا . يحاولون اخافتنا . سحرّقهم في المنزل .

عاد أشخاص حاملين صفائح نفط . أشعّلوا النار في مرأب المنزل . كفّت الطلقات من منزل البasha . فجأة انفتح الباب وظهر عبد البasha رافعًا رشاشه فوق رأسه، أسود وضخم، صاحت الجمّوع :
- رابع! رابع! ها هو رابع!

حاول القبطان منعهم من الهجوم على العبد، لكنّهم جنّعوا مُندفعين إليه . ألقى رابع برشاسه على الأرض، الدماء تسيل على وجهه، لم تندّ عنه صرخة . نسبوا أظافرهم في ثيابه، ولحمه . يُهווون عليه بالهراوات، ترّفع تحت الضربات الوحشيات المجنونة

ثم سقط . جيش يندفع لتمزيقه بختلف الأدوات . يسجّبونه إلى عرض الطريق . النساء يزغرن . الأطفال يبتهجون صارخين . انشقَّ رجل من بين الزحام تَجَمَّع فيه كُلُّ جنونهم وكسر زجاجة نفط على رأس العبد ، آخر يشعل النار في طرف هراوة منقوعة في النفط ويرميها عليه . يبتهجون بجهنم . احتفال بدائي ، ابتهاجات وصرخات غضبي على الضّحية .

- مُتْ بِبَابِكَ الْخَنْزِ !

- مُتْ بِبَابِكَ الْجَرْوِ !

- مُتْ بِبَابِكَ ! مُتْ بِبَابِكَ !

يتمرغ منتفضاً وجسمه شعلة هائلة . همد ، رائحة الشّجم البشري تصرف . كتلة فحمة متهرئة ، يطعنونه بالسّكاكين والسواطير وأظفارهم ، إنهم يفترسونه ، امرأة خطفت عظم الساق ببعض لحمها وعضت عليها بوحشية ، ثم لفتها ، بجهنم ، في قطعة ثوب ، مزقتها من ثيابها ، ودستها تحت إبطها واختفت .

- ماذا ستفعل بذلك العظم ؟

- ستسحر به لزوجها حتى لا يضرها أو يعشق امرأة أخرى أو يطلقها ، هكذا يقولون .

بعد لحظات لم يبق من الجثة غير بقايا أحشاء ورائحة شحم مقيدة ، يخرجون الأثاث من المنزل ويراكمونه في عرض الطريق . سلب وإحرق ، أشعلوا النار في بعض الأثاث والكتب . سلب وإحرق ، صرخ رجال النظام في الهائجين :

- الكتب لا تحرقونها . سنحملها إلى مركز الحزب (4) .

سُحب الدخان تنبئ من المنزل . تجاویس زغاريد النساء

المتظاهرات، وصرخات الأطفال الشرسين . الاسپانيون المدنيون يشاهدون ما يحدث ، في صمت ، من نوافذ وشرفات منازلهم . الجنود الاسپانيون لم يتحرّكوا من مكانهم على الرصيف . تراكمض المُتظاهرون مُتفرقين جماعات نحو اتجاهات منازل عمالء البasha . وصلت شاحنة وسيارة جيب . أخذوا يشحنون الكتب ، والاثاث الثمين ، الذي لم يحرق أو هو نصف محروق . رجال النظام يعترضون طريق الذين سلّبوا بعض الاثاث وينزعونه منهم . هناك من خلع ثيابه وارتدي ما سلبه من ركام الملابس . اقتحموا منزل عميل في طريق برشلونة . لم يجدوا أحدا . نهبوا وأحرقوا . جنوا من جديد راكمضين نحو منزل متهם آخر بالخيانة الوطنية . ظهرت جماعة هائجة من باب الكبيبات تجبر بعنف عجوزاً على الأرض فاقد الوعي يطعنونه بالسكاكين . العجوز الآن شبه عار (5) عيناه زانغتان . كتلة جسدية فقدت انسانيتها . قيدوه من أطرافه بالحبال ، وصلبوه إلى شجرة ، قبالة باب الكبيبات . صبوا عليه النفط وأشعلوا فيه النار . صرخات وابتهاج وزغاريد وقفز . الشحوم البشري بدأ يفوح في ساحة اسبانيا . عينا العجوز تمحظان . تدوران في محجريهما . ينتفضن جسده . الإسبانية ، بائعة الشروس ، تصرخ (حانوتها جنب باب الكبيبات ، قبالة شجرة المصلوب) .

-- يا إلهي ، لا ! لا ! لا ! ... !

أغمى عليها . قيل ماتت بالسكتة القلبية .

في الليل خلت الشوارع إلا من بعض المشردين يجتمعون بقايا الأشياء المحروقة في منزل البasha ، ومنازل العملاء . أمام الشجرة توقفت سياراتان : واحدة للإسعاف وأخرى للأمن . رجال الإسعاف مُقنعون ولا بسو قفازات من المطاط . يَجتمعون أشلاء الجثة المتاثرة في صندوق ورجال الأمن يحرسون الساحة كلها .

ضَخُوا مسحوقاً داخِناً على الشجرة المحروقة، والأرض، فامتلا
جزءٌ من الساحة بباب ذي رائحة كريهة خانقة، لكن رائحة الشحم
البشري كانت أقوى: ظلت عالقة في شامات الناس .

(1) كان الباس اعميل الاستعمار الاسپاني .

(2) حدثت في طنجة، بعد الاستقلال مباشرة، أن بعض التحصين لسيادة النظام بين الناس كانوا يسمحون لأنفسهم بأن يتذروا بملابس عسكرية، بقطعة واحدة (بنطلون أو سترة أو قبعة) أو بدلة كاملة، بحرية أو برية أو جوية موسومة برتبة ضابط وساعد شارة الرایة المغربية . كانوا يجادلون بها بحار آخر الحرينة الأمريكية وغيرها أشياء من الصناعة التقليدية المغربية. لم تكن السلطات تهتم عليهم . لقد كانت كثير من الأشياء مباحة في تلك الأيام .

(3) كانت الطلقات تصدر من منزل الباسا من عدة نوافذ . وتبين فيما بعد أنه لم يكن داخل المنزل غير رأيَّن الشهور في المدينة بعد الباسا . كان الناس يظنون أن الباسا ما زال موجوداً هناك بينما عرفوا، فيما بعد، أنه طر إلى إسبانيا مع زوجته الإسبانية عن طريق تطوان، وسبنته، تحت حماية الإسبان إلى حد قطع الاتصال التلفوني بين العرائش وتطوان .

(4) حزب الاستقلال .

(5) في ذلك اليوم كان يكفي أن يَتَّهم أحد المتظاهرين أيّاً كان بالخيانة فيحرق فوراً . كان العجوز (الشرف السوماني) المحروق قائداً سابقاً في قرية خميس الساحل . قيل، فيما بعد، أن أحد المتظاهرين كان مديناً له بمبلغ من المال ، عاجزاً عن تسديده ، فدبر له هذه المكيدة حتى يتخلص منه .

2

أول برس

صَبَحْبَنِي المدير إلى القسم وقدمني إلى المعلم :
- السَّيِّد مُحَمَّد، هذَا الولَد سيدرس عندك .

خرجا قدام الباب وتكلما : لا شَك يتكلمان عنِي . أَكِيد أَنَّ
المدير جاء بي إلى هذا القسم ليُضْعِنِي تحت الاختبار . قد يقول لي
بعد أيام : "إنك لا تستطيع أن تستمر في الدراسة هنا . أحسن لك أن
تعود إلى طنجة ."

تهامس التلاميذ ناظرين فاحصيتي . احسنتني مسروقاً بينهم ،
لم يسبق لي أن كنت بين أكثر من أربعين شخصاً يفحصونني من تحت
الى فوق . في القاعة تلاميذ في مثل سنِي ، لكنهم يعرفون القراءة
والكتابة . على السِّبُورَة ، درس مكتوب ، وأمامهم الدفاتر ، سأعرف
أن هؤلاء الكبار جاءوا من البدائية .

عاد المعلم وأجلسني ، في الصُّف الوسط ، إلى جانب أصغر

تلميذ في القسم. في حجرة الدرس ثلاثة صفوف : عن يميني أربع تلميدات ناهدات في المقاعد الأولى .

المعلم :

- هزارفيق جديد . حاولوا أن تتعاونوا معه .

نظروا إلى متهماسين ، متحركين في مقاعدهم . ضرب المعلم بمسطرته على مكتبه . سكتوا . معظمهم يلبس الجلباب . نظراتهم مبهورة . كان سهلاً على أن أميز البدويين منهم ، والمدنيين ، من خلال ملامحهم وهنداهم . ينقلون الدرس المكتوب على السبورة . تُرى ماذا ينقلون ؟ أمامي دفترى ، وقلمي ، في انتظار كيف أبدأ أول درس . كانت رموز العالم تنتقل إلى صفحة رفيقي في الطاولة وصفحتي بيضاء . أحدقُ فيهم وأفكِر : يكتبون بخفة . أيتركني . المدير أتعلم مثلهم ؟ إذا لم يتركني فاحتماً سأعود إلى طنجة لكي أعاشر محترفي الفسق دون أن أعرف شيئاً ، مما يحدث في هذا العالم ، من خلال رموزه . ما دمت قد جئت فين يعني لي أن أعلم . "الحياة الحقيقية توجد دائمًا في الكتب . " هكذا قال شخص في طنجة .

تمشّى المعلم ببطء ناظراً إلى كتابة بعض التلاميذ دون أن يتوقف حتى وصل إلى طاولتي . رجل هادئ ، ودود . لا شك أنه لم يعش مع أولاد الزنا . انحنى على دفترى وكتب على الصفحة الثانية كلمات : كل واحدة في سطر ، ناطقاً إياها بصوت خافت ثم طلب مني أن أكرر كتابة كل كلمة حتى يمتليء السطر . لم يكف رفيق طاولتي الصغير ، النحيف ، والوديع ، عن النظر إلى دفترى وإليه ، وإلى يدي ، منذ رأى أحابيل كتابة كل كلمة بمثابة . يدي ترعن مع خط كل كلمة . نظراته المختلسة تضاعف من رعشتي وتشنجي . لم أعرف أنني كنت في القسم الثالث إلا بعد يومين : (المتوسط الأول حسب مصطلح اليوم)

ملات السطور الثلاثة . مرة أخرى ضممتُ ذراعيّ ناظراً إلى المعلم متمنياً بين الصفوف أو إلى التلاميذ متنكبين على تقل الدرس . بعضهم كان قد انتهى من الكتابة . اقترب مني وألقى نظرة على ما كتبته :

- حسناه، قريراً استعلم ، إن شاء الله !

ثم طلب من رفيق طاولتي أن يكتب لي كلمات في مستوى ما كتبت . تهams التلاميذ . استقام المعلم واقفاً ومسح القسم بنظرة شاملة . سكتوا . فرِح رفيقي ، بنظرات وحركات ، أكثر مما فرحت . شَعْرَتْنِي أقل واحدٍ بينهم . لم أكن أعرف سوى الحروف التي علمني إياها حميد في طنجة . حزنت . مذنب . مكانٍ ليس بينهم . لقد جئت من عشيرة القوادين ، واللصوص ، والمهربين ، والقحاب . لكانني في مكانٍ مقدسٍ أدنسه ، ولكن قد يكون بينهم من هم أبناء هؤلاء المنحوسين مجتمعين . عزَّيت نفسِي . إني في مطهر إذن . لو لم يأتوا ، هم أيضاً ، إلى هنا ، فلربما يصيرون مثلما كنت . زالت كآبتي وأنا أدافع عن نفسِي حتى ولو كنت مخطئاً فيما تصورته عنهم .

صَارَعْتُ فكرة البقاء هنا أو العودة إلى طنجة . إن مرجي الآسن يتظرني هناك أو في أيّ مكان آخر ، لكنني سأبقى هنا حتى ولو زالت زرقة السماء إلى الأبد في حياتي .

كتب لي رفيقي كلمات ناطقاً إياها بخفوت مثل المعلم . شكرته ورعدت يدي ، وأجهدت نفسِي من جديد مُحاولاً تقليد خطه الجميل . منذ تلك اللحظة صرت أتعلم من التلاميذ أكثر مما أتعلم من المعلمين .

3

في المطعم

كنا نتسابق ، على حيازة المكان الأول في الصيف ، قبل الدخول إلى المطعم . يراقبنا معلم مدة أسبوع ، أثناء وجبتي الإفطار ، والغداء ، ثم يخلفه معلم آخر . للبنات صفين ، يدخلن قبلنا . لم يكن جميلات . واحدة كادت أن تكون . الحمحمات والهمسات تختلط برنين الملاعق والصُّحون . المعلم الحارس يتجلو داخل القاعة . أحياناً يخرج قدام الباب مولياً لنا ظهره ، ناظراً إلى فراغ الساحة . حينئذ يكثر ضجيجنا ، ويتعالى ، فينهضنا صارخاً :
- الحمير ... من لا يريد أن يأكل ويستكثف ليغادر القاعة .
ثم يعود إلى تدخين سيجارته عند العتبة . كان هو المعلم المتوجه الذي اختبرني في الحساب . الفقر مسخ ملامحنا . لم يترك لنا سوى ما هو إنساني فينا . ربما يصرن جميلات ، هؤلاء الصبيايات ، إذا كافحن فقرهن ، في المستقبل . الصحن الأول من القطنيات . نجده جاهزاً

على المائدة . الذباب يتسلق في الصحنون . لا بد ، أحياناً ، من إزالة ذبابة أو أكثر من الصحن ، ميتة أو ما زالت تكافع حياتها . يغرقها في المرق من لا يعاف ثم يزيلها حتى يحل الطعام وتموت الجراثيم فيأكل . (يعتقد بعض الناس أن أحد الجناحين فيه جرثوم ، وفي الآخر ما يبيده) ما زلت أتساءل عن اختراع هذه الوصفة الذكية عن سقوط الذباب في طعام وشراب الجياع . ربما لتسكين آلامهم ! إن البحار يكون ما يفتا يفوت من آخر الصحنون التي وضعت . أتعمد الجلوس في آخر القاعة حتى يُتاح لي اختلاس كسرة خبز من بعض أوائل الموائد قاصداً مائدةي الأخيرة في الصف أو قبلها . الطعام لا يكفينا ، نحن الكبار . نطعم حتى الفتاتات المتساقطة . نستغل أيضاً فقدان شهية المرضى الحاضرين أو المتغيبين فنسطو على الفائض . الصحن الأول نلتقطه بحذر ، لأنه لا يخلو من الحصى . أذكر واحداً منها مضغ شظية زجاج صغيرة ، في صحن الأرض ، وبصق دما . الصحن الثاني فيه بصلة مقلية أو سمكة مع صلصة طماطم أو قطعة لحم . غالباً ما تكون فاسية أو مطاطية فنخشى بلعها حتى لا تنحصر في الحلق . (نقتصر على مضغها ومصها ثم نتفعلها) القطنيات والخضر هما الأساس في طعامنا . أقتصر ثلاث أو أربع ذبابات خارج المدرسة . ألفها في ورقة كي أرميها في صحن ، أو إثنين ، قرب مائدةي .

أحياناً ، حتى لا أتأخر عن الدخول ، أصطادها في المراحيف . ليس هناك ذباب فذرٌ وذباب نظيف . رغم احتياطي ، عند وضع الذبابات ، فإن رفافاً يرمواوني . لا أحد وشى بي . ضبطني معلم الحراسة بنفسه أختلس كسرة خبز فصنعني وطردني من المطعم مدة ثلاثة أيام . تضامن معي بعض الرفاق فراحوا يوفرون لي من وجباتهم كسرات خبز وسمكـات ، وقطع لحم صغيرة . المعلم كان أعدل من أن يُشفق .

كنا نحترم فقرنا ونتأزر . كلنا ، تقريباً ، كنا فقراء . إن فقرنا

يعتبره المستغلون شيئاً طبيعياً .

بعد ذلك التهالك على الغداء أكون في حاجة إلى النوم حتى أعرض ما فاتني في الليل . خارج المدرسة هناك مقعد من الإسمنت المسلح ملاصق لأحد جدرانها . أحياناً يعمقُ نومي فيفوتني درس أو كلُّ الدروس .

كان في الحي كسيحٌ متفوقاً على كلِّ التلاميذ في الرياضيات . ربما كان أيضاً متفوقاً على بعض المعلمين ، كما سمعت تلاميذه قسم الشهادة يقولون . انقطع عن الدراسة في مستوى الشهادة الابتدائية دون أن يشارك في امتحان الالتحاق بالتعليم الثانوي . أمه ماتت وأبواه هجر المدينة منذ أعوام ولم يعد قط . لا خبر عنه .

ترك كسيحه مع خالته البكماء الصماء تكب العيش من نَبْش أزبال الصباح الباكر و تسترزق الله بالتسول في محطة السفر . يقوم بالعمليات الحسابية والتلاميذ حوله يسألونه وهو يفسر لهم حلَّ العملية بعدة طرق . تقديرأً لذكائه الرياضي يعطيه بعض التلاميذ مستيمات ، أو سجائر متفردة ، أو شيئاً من الأكل .

أحياناً يتراهنون على حل إحدى العمليات ، فيما بينهم ، أمامه فيقادمه الرابع نصيب المخاطرة . كان يقدم لنا مساعدته دون مقابل مَشروط . حين يُسعفني الحظ في الحصول على بعض البسيطات أشتري له سجائر شقراء التي كان يفضلها على السوداء . أشتريها من تجار العربات المتنقلة في المدينة الذين يبيعونها متفردة .

أذهب إلى حقل قريب من المدرسة . أستلقي في ظلال شجرة وأدخن الأعقاب التي ألتقطها من شوارع المدينة في حالة إفلاسي التام . أتخيل أشكال السُّحب العابرة حيواناتٍ ضخمة ، أسطورية دون أن أفكر في شيء ، أو أستعيد الأكثر متعة من ذكرياتي في طنجة : ذكريات الأفخاذ ، والربّوات الجميلة ، والصدور الناهدة ، فاستمني . إن هذا المزيج من الذكريات المشالة يسلمني إلى غفوة أفق

بعدها وكأني نمتُ ساعات . هناك مقبرة نصرانية أترددُ عليها .
أتجول بين مراتَ قبورها . أجد إمتناعاً، في محاولة قراءة الأسماء ،
والعبارات ، على الشواهد ، حتى في التي اقرأها ولا أفهمها . لا
أعرف ما يحفزني دائماً إلى التجول في المقابر؟ أهو سلامُها أم هي
عادتي أيام نومي فيها؟ أم حبّاً في الموت؟ (1)

(1) مازلت أمارس هذه العادة حتى اليوم . بعض كتاباتي - منها الجزء الأول من سيرتي الذاتية : الخبز الحافي - وهذه التي أكتبها اليوم ، كتبت فصولاً منها في المقابر اليهودية ، والنصرانية ، والاسلامية خاصة المقابر التي يرجع عهدها إلى القرن التاسع عشر في طنجة ، ربما لأن المقابر القديمة أكثر إيحاءً أو لأنني أحب الموت القديم !

4

القول المدحوق له رائحة بشريّة

عاد حسن من تطوان . لقد سوّى مشكل عودته إلى المعهد مع نائب وزارة التعليم الاقليمي . بدأنا نلتقي خمسة أو ستة من الزيلاشين في مقهى السنّي عبد الله . كلهم يدرسون في المعهد . بعضهم يستفيد من منحة خارجية وبعضهم غير منوح . في نهاية كل أسبوع يستلمون من أسرهم حاجياتهم أو يسافر بعضهم إلى مدینته . حسن لم يكن يعتمد قطّ على أسرته . كان وإن خوطه قد جعلوا متجر أبيهم يفلس منذ سنوات قبل أن يقتسموا ما تبقى فيه بعد وفاته . يشتري حسن بعض البضائع الخفيفة : مكبات الخيط ، والإبر ، وعلب الشوكولاتة من المخازن ويبيعها للدكاكين الصغيرة في الكبيبات وغيرها . مرة صحبته فاشترى مكبات خيط من متجر يهودي وباعها للدكاني مغربي على بعد أمتار بضعف الثمن الذي اشتراها به .

ندخن الكيف لأنه أرخص من السجائر و مفعوله أقوى منها .
أعيش على صدقائهم الصغيرة وغيرهم من رواد المقهى الفقراء
مثلنا . يعلمونني المواد التي أدرسها أو يراجعونها معي في دفاتري .
حسن يعلمني الإنشاء بمحبة ولا يتذمر أبداً . أخطائي كثيرة ، لكن
تجاربي في المواضيع جيدة . عندما أسأله عن قاعدة نحوية يقول
لي : " لا تعبأ بصلة المنسوب أو المرفوع . المهم هو أن تعرف الكتابة
والقراءة السليمتين . هناك من يعرف قواعد النحو بشكل جيد ، لكنه
إذا كتب أو قرأ قد يرتكب أخطاء القاعدة التي يحفظها ويعرفها في
أكثر من مرجع نحوى . "

فكرت : أهو ما يقوله حسن صحيح أم أنه ييرر جهله في النحو ؟
فيما بعد أدركت أنه على حق . ميلودي يراجع معي الإسبانية التي
يتتفوق فيها على العربية ، انه من أكسل تلاميذ المعهد ، ومن أكثر
المدخنين للكيف بيتنا . في المساء يحتاجني جوع يصيبني بالسخفة
واضطراب نبضات القلب . ان وجة الغداء المدرسية استنفذ طاقتها
قبل نزول الظلام . الكيف يضاعف جوعي ، لكنه لا بد منه لتخدير
الهم والقلق . في الصباح قلما أصل في الوقت المحدد للإفطار في
مطعم المدرسة قبل الدخول إلى القسم . لا أنام جيداً بسبب الجوع
والبرد ، وحثّ جلدي الوسخ وشعر رأسي والتسكع في الليل .
عندما ينتهي ليل المحظوظين في الشارع يبدأ ليلي المشؤوم فيه . غالباً
ما يحتفظ لي أكثر من رفيق بكسرات من الخبز أكلها مع الماء في
سخط . المسافة ، بين المدينة والمدرسة ، تستغرقني ربع ساعة أو أكثر
مشياً على الأقدام . أيام الشتاء يزداد فيها يأسني . أذهب في المساء
إلى الملاجأ الخيري . حوالي ربع ساعة من المشي . لم أكن مسجلًا
رسمياً للأكل في المطعم . يعطيني المكلف ، شفقة ، خبزة صغيرة
واضعاً بين شطريها مَرْقاً وشريحة لحم أو شحمة ، أو سردينات
مقلية . اذا سقط المطر لا أجده في الطريق مكاناً يحميني غير شجرة

تكون قطرات أغصانها أكثر إيلاً . أحياناً يكون المكلف غائباً فأعود أكثر جوعاً لا عن اكل من أراه يأكل . مرة ذهبت يوم الجمعة وقت الغداء . الكسكس هو الطعام الذي لم استسغه قط في حياتي وأنفر من دعواته . ربما لأنه كان هو الطعام الذي أكله المعزون مع الكرشة بعد جنازة خالي في الريف أيام المجاعة . كنت في السابعة من عمري . دعاني المكلف للغداء مع نزلاء الملجأ . جلست مع أربعة عجزة حول المائدة . أقرفتني شيخوختهم وعاهاتهم . لقد كانوا أكثر الناس طلباً للرحمة والأنسانية : هذا أعمور ، وهذا أحول الفم يسيل لعابه ، وذاك أدرد (عديم الأسنان) ، وأخر ترعش يده ، إلى آخر العاهات . انعكست على مشوهاتهم . تلك أول مرة أكل فيها هناك وآخرها . ينظرون إلى عاجذن مضغتهم باستلذاذ وتلّمُظ . خجلت من نفسي أيضاً لأنه لم تكن في آية عاهة . وضع لي الخادم صحنٍ . أكلت الخضر بسرعة . لم أذق الكسكس وشريحة اللحم التي تسمط ولا تتمزق بين أسناني كما في مطعم المدرسة . هم يبلغونها بعد مضغ يائس . أسئل عن كيف يهضمونها ! أخرجت منديلي متظاهراً بمسح فمي فبصقت فيه المضيغة المطاطية . أعطاني المكلف خبزة حافية للعشاء وغادرت ومعدتي تتخاصم فيها القبط والتقيؤ يكاد يغلبني قبل أن أصل إلى عتبة الباب . في الطريق إلى المدينة سلطت عليَّ وجوههم . لكانهم خرجوا من كهف مكتوا فيه زماناً . ليست الأشياء هي مقرفي إنما هو الإنسان المشوه . أحسست بمغص في معدتي . دنوت من شجرة وتقىأت المحتوى كله مختنقًا حتى لم أعد أتقىأ غير الهواء . دمعت عيناي ودخلت . استرحت قليلاً ثم استأنفت سيري . السلهمامي لن يدخل عليَّ بسمكة يُشهي لي بها خبزتي الصغيرة .

اشتياقي إلى لعينتي طنجة يُحزنني . لها عندي طعم مُغر حتى في أحرق ظروفي فيها . لا أكاد أغادرها سئما منها حتى يوتنني حين

جنوني بها كما كنت في وهران أشتاق إلى تطوان . ثيابي تتسع
وتتبلى وتتفوح منها رواحة جسدي . القمل يعيش فيها . حذائي
يتسرب إليه الماء . شعري يغزر ويتدفق وسخا . أحكمه باستمرار
حتى يسود ما بين أظافري . حين أمشطه إلى الأمام ، لأنظفه من
قشرة الرأس والغبار ، يتماشط منه قمل أسود نشيط . في كل مشطة
لا أقل من ثلاثة أو أربع فملات سميكة ، تتحرك بحيوية . موجها
إياها - بعد صفير - أجعلها تتسابق ثم أضعها في قصاصة ورق
وأحرقها بوقيدة لأتسلل بقطقة احتراقها .

أبقى في القاهرة حتى تغلق (1) . بعد منتصف الليل أهيم في
الشوارع منتظرًا باب الله (المسجد الكبير) أن يفتح عند صلاة الفجر .
أنام ، في أحد أركانه ، على حصير تفوح منه رائحة الرطوبة
البشرية . الحارس الخفافي الدائم ، أو أي نعاق مسجدي عابر ، يأتي
فيُزع عنّي في سباتي ويطردني قائلًا :

- هذا مكان الصلاة والعبادة وليس للنوم .

أتوسل إليه أن يتركني . حين يعند ، غيًّا ، العن فرج أمه ،
وشجرة أسلافه ، جهرا ، وأخرج حافياً وحذائي في يدي إلى
الدروب من جديد .

ذات صباح باكر كنت مكوراً في ركن . أحسست بجسم يتعثر
في جسمي ثم يهوي فوقى . أفت لا لعن في غضب . انه المختار
المداد الأعمى . سمعت عنه . تلميذ في المعهد الديني . معروف
بحججه في التحصيل الدراسي . متفوق في اللغة العربية وأصولها .
يحفظ القرآن والحديث النبوى ، والشعر العربى ، الملعون منه والمعلم
اعتذر لي جدًّا آسف . حين عرف أنى أدرس أخرج من تحت جلباه
الصوفي كتاب "مدامع العشاق الثلاثة" لزكي مبارك . عرض على
أن نفتر معاً على حسابه في مقهى ستراول وتقرأه . كان يوم الأحد .

(1) في انتظار موعد الأغلاق . يتركني صاحب القاهرة أتند فوق المعد فأغفو ، رغم ضجيج
لاعبي الورق ، متوسداً دفاتري . في الصباح أجد لطخات دم وبقعات مسحورة بين أوراقها .

خارج المسجد كاشفته قليلاً عن حياتي، والظروف التي حفزتني إلى الدراسة في العرائش . تآزرنا . يتأوه إثر كلّ كلمة أقولها أو يقولها . هو أيضاً بائس ، لكنه ليس متشرداً مثلي . يتيم . لم يتلاعن مع أبيه . لا بدّ أن الله مسرور بهذا اللقاء . له أخ يكبره يعول أسرته ، وآخر أصغر يدرس . رَدَدَ عَلَيْيَ مِرَاتٍ ، بِعَرَبَةٍ فَصِيقَةٍ :

- كل شيء يهون ...

يعرف مسالك الشوارع والأرصفة وأفاريزها . عند العبور إلى رصيف آخر يستوقفني على الإفريز . يلتفت يميناً ويساراً كأنما هو الذي سيقودني ثم يقول :

- هياً بنا الآن !

انه يرى بسمعه . أتركه يمارس خبرته كمالو كان وحيداً . اشترينا "الشروس" وذهبنا إلى مقهى سترايل . بعد الافطارأخذت أقرأ له كتاب مدامع العشاق الثلاثة . عندما أعجز عن نطق كلمة صعبة يساعدني على قراءتها طالباً مني إعادة قراءتها أكثر من مرة .

قال لي :

- إن العربية لغة صوتية

أنا الآن أتكلّم عن سنة 57 . وفي الثمانينات قرأت كتاباً عنوانه : «العرب ظاهرة صوتية .»

يشرح ويعرّب أو يصرّف فعلاً صعباً . هذا هو الذي سيكون معلمي الحقيقي وأنا قارئه الملازم . طُرُز في المعلمين الذين ليس لهم صبر جميل للتعليم !

أقرأ أي شيء مكتوب : كتاباً معاراً أو مسروقاً ، أو ورقة مكتوبة من على الأرض ، أغلبها بالاسبانية . عناوين المتاجر والمقهى يستحوذ على هوس قراءتها ونقلها ، أحياناً ، على ورقة أو دفتر المسودات . هي ، أيضاً ، كلّها ، تقريباً ، بالاسبانية . كنت أستعجل تعليمي بجنون في جميع الظروف القاسية . كان رامبو على حق

عندما قال : "ليس من الخير أن يُبليَ سراويلنا على مقاعد الدراسة". هو الذي كتب ورأى .

صادرت القراءة والكتابة عندي هُوساً في الحلم واليقظة . أتخيل نفسي ، أحياناً ، حرفًا كبيرًا أو فلماً . بنس الحلم المكوبس ! أحياناً ، لا أجده ثمن شراء دفتر فالنقط الأوراق البيضاء المستعملة لأكتب عليها دروسي . اذا هي تلك التي يُلفُ فيها الشروض فالكتابة تنعدم في بقى الزيت . كلمة هنا وكلمة هناك . أسلى بهذا الزخرف . أحياناً يتكون على الصفحة نوع من التشكيل الصبياني . قذاري وهزالي أنساني التفكير في المللات الجسدية . أحسّ كمالوأني لم أقنع أبداً بها . تفو ، في العالم المُقْمَل ، الفاتح بالتناهية المقيمة إلى حد الاختناق .

في قسم الشهادة الابتدائية يدرسنا مواد اللغة العربية معلم ثناب متبعج بنفسه . يعني ب أناقة لباسه أكثر مما يعني بتدرستنا . يتمشى بين الصفوف مختالاً متعرجاً كما أراه في الشوارع وهو يتبع احدى الفتيات كاشفاً عن أسنانه البيضاء . بين حين وآخر يسوّي عقدة رباطة عنقه على انعكاس زجاج النافذة اذا كانت مفتوحة واذا لم تكن يفتحها . يحكى لنا النكات أو يطلب من بعضنا أن يحكىها . يضحك لأتفه الأشياء . يقرأ الصحف والكتب في القسم . يطلب منا أن نراجع دروسنا السابقة في صمت حتى لا نشوش عليه استغرافه في قرأتها . أهو جاء ليعلمنا أم جاء ليتعلم ؟ هكذا أفكر في القرد الأمرد الأسمر . يغضب بسرعة ، يسبّ من يخطيء في أدنى شيء . انه ابن امه الكبير هذا المعلم . كلنا ، في نظره ، حمير وهو راكينا بعلمه وعصاه . يضع دائمًا قضيباً على مكتبه . يضرب من يغضبه ، إن ضرباته تجعل المعاقة يقفز ويتقوس . قد يرجع الى مكانه وهو يدمع . ان هذا الولد الكبير المعلم يغضب مثل من هرب منه قوله الى السطح كما يقال . يكرهني ، يسخر من ضعفي في كل

مواد العربية . في احدى المخصصات لم أكن قد حفظت قصيدة صفيّة
الدين الخلبي التي مطلعها هذان البيتان، إذا لم أخطئ :
سافر تجده عوضاً عن تفارقه ★ وانصب فإنَّ للذيد العيش في النصب
إني رأيت وقف الماء يفسده ★ إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
اقترب مني غاضباً وهو على كتفي بقضيبه الرفيع ثلاث
مرات . في الثالثة مسني رأس القضيب في أذني اليسرى . ظلل يحقرّ
سني المتقدمة ، ومستواي الدراسي حتى ختم غضبه القردي بهذه
الكلمات :

- حمار ... غبي ... أنت ستدرس؟ عد إلى طنجتك مع أولاد
السوق بدلاً من أن تضيع وقتك هنا وتضيعه لنا معك .

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يضربني فيها وبعدها اقتصرت
على السب ، بين مرة وأخرى ، حتى نسي وجودي . لمست أذني
الدامية . استنكار في نظرات رفقائي . تآزروا معي صاغرين .
فكرت أن أنهض وأرثقي عليه : أن أتناطح معه كما كنت أفعل في
تطوان أو طنجة في المشاجرات حتى ولو انهزمت . أن ... نتعارك
حتى يخور أحدهنا ، أن أحاول عض أذنه الحمارية حتى ابتراها
وأبصقها في وجهه . لكن سيكون آخر يوم لي في المدرسة . سأترك
أذن الحمار لأسنان الحمير . عندما انتهى الدرس ذهبت إلى المغاسل
ونظفت أذني بالماء من الدم المتاخر . كانت قطرات قد سقطت على
كتفي . بدأت أذني تسيل من جديد بعد الغسل .

يدرسنا أيضاً نفس المعلم الذي اختبرني أول يوم في الحساب .
سرير الغضب مثل الآخر ، صارم ، ينعتنا بالحمير في حجرة الدرس ،
وفي قاعة المطعم . يحمل دائماً كتاباً ، أو كتابين ، أو أكثر ، باللغة
الأجنبية . سمعت أنه يدرس الانجليزية بالراسلة ، ويعرف
الاسبانية ، وقليلاً من الفرنسية . يدرسنا الحساب والتاريخ
والجغرافية . هو أيضاً يضرب بالقضيب على أطراف الأصابع أو

يصفع ، لكنه لا يغادر حصته حتى يستدرج المعاقب الى المصالحة معه . لم نكن نحقد عليه مثل الآخر . يساعد بعض التلاميذ المعوزين الوافدين من البدادية ببعض النقود والثياب ويزورهم في مساكنهم متقدداً أحوالهم مراقباً فروضهم . أنا لم تشملني رحمته ورعايته خارج المدرسة . لم يكن لي مكان قارئ أنام فيه . كنت أتبع خطى السكارى ، والخشاشين ، وطوافي الليل . أجد لي دائماً مكاناً بينهم . لقد كانت لنا نفس الذكريات واللغة ، لنا عالمنا ليلاً ونهاراً ، في لعتنا الجميلة . إن السكارى ، والخشاشين ، وطوافي الليل ، يتّشابهون ، ويتأزرون ، أينما كانوا ، في أيّ زمان ومكان . إنهم يرفضون الدخيل عليهم والوسيط ، إذا لم يعتنق لعنتهم .

بعض رموز العالم بدأت أجده لها معانٍ فيما أقرأه . تجّحت في امتحان الالتحاق بالتعليم الثانوي . نقلت من تلميذ في مادة الحساب قيل لي أن بعضهم نجح بالرشوة أو الوساطة . قلت لنفسي : أنا أيضاً غشّت في مادة الحساب . ساعدني المطعمي السلهامي على شراء تذكرة السفر وعدت إلى طنجة : لعيتي ، مهما جفا كلانا من الآخر .

5

المرؤاني

جاء المرواني الى مقهى الرقادية كعادته ، لكنه اليوم لا يحمل صينيته الكبيرة المملوقة بالأرغفة الباكستانية ليبيعها في المقاهي الشعبية . هذا الصباح يحمل فقط رغيفا مشطورا مدهونا بالسمن والعسل . يتناول افطاره شاتما هؤلاء الذين يتهمونه ، في غيابه ، وحضوره ، أحيانا ، بخيانة وطنه . أنهى فطوره وصباح بصوت غاضب :

- اليوم سأبرهن لهم عمن أنا ، أنا عميل الاستعمار كما يقولون
عني .

تهams رoad المقهى عن الجthon الذي بدا لهم في عينيه . يدخل سجائره باضطراب . وقف فجأة وأخرج خنجرا كبيرا من حزامه تحت عباءته الفضفاضة البيضاء . تبلبل الزبان وارتعشت ملامحهم ساكين في أماكنهم ، ألقى نظرة دائمة بطينة على الحاضرين .

عيونهم لا تكاد ترمش . نظراتهم مشلولة .

- اليوم سيعرف أولاد الحرام من هو أنا .

خيّاً خنجره وخرج راكضاً في اتجاه عقبة الصياغين . في ساحة بيروت بيروت جالدوس (1) أشهر خنجره وطعن به صيرفيَا يهودياً في دكانه ، ثم امرأة أجنبية . انطلق في طريق الطواحين شاهراً خنجره الدامي ، التقى ببعض المغاربة ، لكنه لم يبال بهم . كان يصرخ : "الجهاد في سبيل الله يا أولاد الحرام . لعن الله الكفار والخونة ... " في حومة بنشرقي قصد دكاناً وجده مقفلـاً . ركل بابه وبصق عليه شاتماً صاحبه . استأنف ركبـه . في طريق دار الدباغ طعن رجلاً وأمرأة أجنبيـن . في نهج إسبانيا ، قرب محطة القطار ، كان هناك شرطي إسباني . قصده المرواني شاهراً خنجره . أطلق الشرطي النار على أحدى ساقيه فسقط يتمنـغ في دمائه وهو يسبّ الملاعـين . وصلـت سيارة إسعاف ، وجـيب الشرطة ، وجمهـور أخذ يتـكاـثـر بـسرـعة .

(1) روايـي إـسبـاني مشـهـور Benito Pérez Galdos (1.920 - 1.843)

6

عند الدب القاسي مثل ذئب الفقراء

جالس في رحبة قهوة سترال . الحرارة تُنعشني . آتية من طريق البحرية . مصبوغة في قميص و سروال أبيضين شفافين لصيقين بجسدها الرشيق . شابة و جميلة . شقراء . في مشيتها غنج . أنفها صغير أفطس قليلاً ، شعرها طويل أملس ، شفتها العليا مقوسة . عيناهما كبيرتان مسحوبيتان . قطة آسيوية . قد تكون لها طباع قطة مشاكسة . اذا كانت واحدة منها فسيكون معنى لهذه الأشياء التي أدخلت بها ذهني عنها . أتبعها . عيائي يخف . دخلت في طريق كرولاس أوتشي . CURRO Las once في ساحة التقدم دخلت داراً أزالت شكي : إنها واحدة منها . انتظرت حتى تصعد الدرج . استقبلتني صاحبة الدار بشاشة . إنها لـ الـ غالـ لـ يـة . بدأت تشيخ ، لكنها ذات حيوية وأناقة . لا أزهي من دارها : دار السلام . ضحكـات ولـغـو صـاحـبـان فيـ اـحـدـىـ الـغـرـفـ . أـدـخـلـتـنـيـ إـلـىـ غـرـفـةـ

صغيرة مفروشة بتخت مغربي . رائحة الندى تفوح . على الحيطان سجادات مزينة برسوم مستوحاة من شخصوص ألف ليلة وليلة . طلبت بيرة . جاءتني بها فتاة جميلة سمراء ، قصيرة وممثلة . " انكحوا من السمر القصار ، ومن البيض الطوال " . لون ثوبها مزيج من البنفسجي والأبيض . انحنت واضعة القتينة على الطاولة الصغيرة فشفّ في ضوء الشمس العمودي تشكيل فخذيها وبانت الفجوة العمودية يخترقها النور القوي . شكرتها وانصرفت ناظرة اليّ مبتسمة . أطلت للأغالبية عند الباب بقامتها الطويلة فانكسر الشعاع وحيثني مشرقة والسيجارة في يدها . ترفل في قفطانها الزاهي اللون . طلبت بيرة أخرى قبل أن أنهي الأولى . سألتها عن ذات السروال والقميص الأبيضين . قالت إن ثمن الدخلة مع واحدة منهم خمسون بسيطة . قلت نعم . جاءتني بالثالثة قبل أن أنهي الثانية . قالت إن التي أريدها مصحوبة . قلت صبراً جميلاً عليّ . قالت هناك اثنان أجمل . قلت الخيار لها . الرجاء في القوادة غالباً لا يخيب . نادت ربيعة . جاءت الجميلة السمراء .. قنینتان آخریان . قالت انها من مكناس . قلت لم أزرمديتها . حملنا شرابينا الى غرفة أخرى فيها فراش . سألتها عن صاحبة السروال والقميص . قالت إن التي أريدها من طنجة . رائحة ربيعة قوية ، وحارة ، مثل لطفها .

في المساء ، تسكعت بين خumarات السوق الداخلي . يتحدثون عن جنون المرواني ، ومذبحته ، وأسرته ، وارثة الجنون ، وعن الاستعمار الذي يختار عملاًه من بين ضعفاء العقول ، والمعتوهين ، الذين يتهدون مجرمين . هيئجني السكر الحزين والعناد فعدت الى دار القوادة " شريوطه " . قالت كترة ما زالت في صحبة الرجال وأنا ان شئت عدت غداً أو فعندما أجمل منها . إن التي استعصت أعطيها مائة بسيطة . ستشاورها . قلت لها مدبرة أعطيها ما شاءت . بانت

في البهوج مختالة في خطوها مثل نمرة شجعت من افتراسها . تباهت نظراتها ثم اختفت في كبرباء المعتصمات . حملت إلى شريوطه بيرتي وقالت :

- لا تُشْقِّ نفسك بها و مالك إلا أسوأها . هي عنيدة وأنا لا أقدر أن أبزّلها حقها . هذا زمان النساء في حياة الرجال . عذ يوما آخر لعل الله يهديها .

صباح هذا اليوم تاجرت في بيع الساعات الزائفة في الميناء . ربحت ثلاثة دولارات . في المساء التقى حميد الزيلاشي يخيط أزقة السوق الداخلي : خرج من السجن متذمرين . رأسه حلبي ، يَعْتَمِر " بريه " أسود باليام من الصوف . شاحب و متواتر الأعصاب .

- أدخلوني إلى زنزانة كريهة الرائحة يخرج من ثقب مرحاضها الجرذان . قضيت فيها ثلاثة أيام .

- لماذا الزنزانة ؟

- لأنني رفضت تنظيف المراحيض متعللاً بالمرض . لقد حقد على الحارس لأنه لم يكن عندي ما أعطيه لابن الزانية كما يفعل من لا يريد أن ينطّف . كنت قد دخلت إلى حان - مقهى - النورماندي في ساحة فرنسا لأشرب كأساً ، امتنعوا عن خدمتي فبلغت على العتبة . قبضني النادلون وأخذوني البوليس و حكموا عليّ بشهر .

بدأ حميد يفكر في العودة إلى الدراسة في العرائش ، إذا هولم يعود إلى السجن بسبب زعارته ، و نشل الجيوب . إنه ماهر ، ولكنه قد يخطئ أو يتھور .

- لا أريد أن أنهي حياتي بين الملائين . إن الذين يحكمون داخل السجن أفعى من الذين يحكمون خارجه . حكم الحكم ولا حكم المحكوم .

رويت له ما حدث لي مع كترة .

- إنها تزيد أن توقعك في فخ حبها . ابتعد عن حب العاهرات .

ان كل واحدة تحاول أن تنتقم من كل الرجال من خلال رجل واحد . كل واحدة منهن تعتقد أن الرجل هو الذي فشل حياتها . كلهن فاشلات في الحب .

- انها شقراء ، وسمعت أن مزاج الشقراوات جدّ متقلب .

ضحك بمحظ

- من قال لك هذه السخافة ؟ ليس هناك لون امرأة خير ولون آخرى شرير . لونهن واحد من الداخل ولو اختلفت ألوان جلودهن . أغرق نفسك في الجنس تنس هموم الحب . ان الحب هم كبير مثل خبز الفقراء .

ذهبنا إلى طريق المسيحيين . دخلنا حانة الجايو - BAR EL GAL - LO كان هناك إسبانيون وبعض المغاربة . إسبانياتان تشربان وترثران مع إسباني ومغربي . شربنا كأسين . أزعجتنا قهقهات المحترفين فخر جنا . أعطيته مائة بسيطة . سيدهب غدا الى أزيلا ليزور أسرته . قد لا أراه الا في العرائش . ودعنته . ذهبت الى حانت خاكوبتيو . كأس من نيدلاينا INA . عملكتني جنون العودة إلى دار شريوطه . ربيعة غير مشغولة . تذكرت عريها الجميل الأسمر ، وزغرب ظهرها الخفيف ، ودفع فخذيها المتلاثتين وعرقها القوي . تخيلتني ألبسها وألبسها ما شاءت من الألبسة الحريرية حتى كادت أن تختنق ضاحكة في هوس لا يكف ثم راحت تتلوى مثل أفuu متحفزة . تتعرى وتتعرى حتى صارت أكثر عريأً من عريها . ان حميد محقق . شهوة خبز الأفخاذ ولا زنبور الحب . الحب جنبي . من يستطيع القبض عليه ؟ مائة وخمسون بسيطة لربيعة وخمسون لشريوطه . انه ثمن رائحة الليلة العطرة بكاملها مع ربيعة .

شربنا وذهبنا إلى فندقها : لا بلاتا LA PLATA .

اشترينا زجاجة مرتيني ، وثلاث ليمونات ، وليمونادا - الصودا . غرفتها صغيرة . اللية صاهدة . جلسنا بشبابنا

الداخلية على حافة الفراش .

-لماذا تلع على مضاجعة كنزة .

-عناد .

-اذن أنت لا تحبها !

-تعجبني .

--إنها صديقتي . سأحدثها غداً عنك وتنام معك دون أن تدفع لها ألف بسيطة كما قلت لشريوطه . إن كنزة أيضاً عنيدة، ربما تكون قد أيقظت فيها أشياء تؤلمها .

-لم يعد يهمني أن أنام معها .

شرينا كأسينا . صمتنا في شرود . تناظرنا .

-أهي تحب أحداً؟

-هي الآن لا تحب أحداً، لكنها تبحث عن حب حقيقي .

-حب حقيقي !

-نعم . حب حقيقي .

-ماذا تقصدين ؟

-نظرت إلي باسمة .

-أنت تتحزّ .

-أبداً لا .

-كل الناس يعرفون ما هو الحب الحقيقي وأنت لا تعرفه .

-لا أعرفه .

-كفاك من الكذب .

كنا مثل طفليين نحاول أن نحلل سرآمن أسرار العالم .

اشتريت بعض كتب المنفلوطي، وجبران خليل جبران، وهي زيادة، وسجّلت نفسى أقرأها . كنت قد سمعت أن هؤلاء يكتبون عن الحب المثالى، الحب الحقيقي . أخرج إلى مطعم "ماريا" القريب من الفندق وأعود حاملاً معي زجاجة نبيذ وكتاباً عن الحب الحقيقي .

أو قريبا منه . وجدت بعض العزاء فيما ي قوله المتفلطي وجبران ورمي ، لكنه حب مشروط بالموت أو الحزن الأبدى أو هو الجنون .

التيت ربيعة في السوق الداخلى . كنزة انتقلت إلى فندق ربيعة لتسكنا معا . اقترحت عليّ أن أنسنم اليهما في نفس الفندق . ثمنه أرخص من فندقي ، ويمكن لي أن أصحب معي من أشاء . الفخ يبدأ . هكذا فكرت . انتقلت إلى الفندق مدفوعا بالعناد ، والفضول ، والمغامرة . حجزت ، في السطح ، غرفة صغيرة مواجهة للبحر . تصاحبت مع حارس الفندق الليلي : شاب مدمى على الكيف والخمر ليل نهار . صار كارها للنساء لأن عشيقته شامة خانته مع صديق له . حين يغلبه الكيف والخمر أنوب عنه في الحراسة إذا لم يغلبني الخمر والكيف قبله . أحيانا تصحب كنزة معها زبونا يقضى الليلة كلها معها أو يغادرها بعد وقت . ربيعة تفعل ذلك في فنادق أخرى . لا أدرى ما يمنعها في فندقها مع أنها متفاهمة مع علال الحارس أكثر من كنزة المتعرجة ، العصبية . القراءة صارت تخفف عني الإدمان على الخمر والكيف . اشتريت أيضا مجنون ليلي وكليوباتره لأحمد شوقي . وجدتني كنزة ذات مساء أقرأ مسرحية المجنون جالساً وراء صندوق الاستقبال فقالت :

- كفاك من القراءة فإنها تجذن .

كان يتبعها رجل .

تعمل كنزة في مرفص شرقى راقصة مبتدئة ، مع ذلك فقد سموها : "الراقصة العفريتة" . في ليلة عادت سكرانة . سائق سيارة الأجرة يستندها . في فمها سigar . هذه أول مرة أرى فيها امرأة تدخن سigar في حجم زب متتصبب . لباس سهرتها أسود لامع وقلادة بيضاء زائفه تتدلّى على صدورها ، ووردة حمراء "مرکوزة" في شعرها . الليل أخفى للوين كما قال لي ماجن لا يقرب الفسق في النهار . قال لي السائق وهو يغادرها :

- إذا لم تستند لها مثلي فإنها ستسقط .

بياض وجهها وعنقها وذراعيها أجمل في ثوبها الأسود . تركتها
واقفة تترنح وأخذت مفتاح غرفتها من حاملة المفاتيح .

- أنا امرأة عظيمة . أنت لا تعرفني بعد .

عال الحارس ميت في نومه . نزعـت لها السـيجار حتى لا تحرقـني في وجهـي وأنا أـسندـها . رائحةـ الخـمر ، والتـبغ ، والعـطر القـوي ، تـمـتزـجـ في شـمـيمـي . لمـ أـكـنـ قدـ شـربـتـ غيرـ كـؤـوسـ فيـ تلكـ اللـيلـةـ . الشـمـلةـ أغـلـىـ منـ جـيـبيـ . أحـاطـتـ ذـرـاعـاهـاـ عـنـقـيـ وـصـعدـناـ الـدـرـجـ هـاذـيـهـ بـعـظـمـتـهاـ وـمـشـقـتـيـ أـعـظـمـ معـهاـ . رـمـيـتـ السـيـجـارـ . يـبـدوـ أنـهـ نـسيـتـهـ . تـتوـقـفـ فـوـقـ درـجـةـ لـلتـكـلمـ عنـ القـنـصلـ الإـسـبـانـيـ الـذـيـ يـرـتـادـ مـرـقـصـهـ مـنـ أـجـلـهـ وـيـمـوتـ حـبـاـ فـيـهاـ . أـحـيـاناـ تـرـيدـ أـنـ تـنـامـ عـلـىـ إـحدـىـ الدـرـجـاتـ فـأـرـفـعـهـاـ .

-لیس هنا.

خلعت لها حذاءها المذهب ومددتها على فراشها بكمال زيتها .
تعيش لياليها بجلالها الكامل . جلستُ على حافة السرير عند قدميها وأشعلتُ سيجارة . أتأمل غيبويتها وتنفسها الواهن . إن لها الآن جمال امرأة ميتة مشتهاة في زمن بابلي أو اغريقي . لم يعد فيها ما يغرى . فقدت كل كبراء صحوها ، وغزلها ، وتباهيها . لقد تحررت من كل خداع ، من كل زيف بشري . أنها الآن لنفسها كلية شاءت أم لم تشا .

لم أعد أرى حميد مبتدأ فترقنا . مرت أيام التجارة ، مع بحارة

البواخر، كاسدة . صرت أقود تارة السياح وتارة الجنود البحارة إلى المواخير والحانات . ربيعة وكنزة تصا جعان الرجال . أنا أقرأ وأنسخ، أحياناً، ما أقرأه حتى يرسخ الأسلوب في ذهني ، والكتابة السليمة دون أن أعرف قواعدها النحوية كما نصحتني حسن .

اكتوبر يقترب . لم أوفر كثيراً . لقد استنزفتني الحانات والمواخير لأنسي صدمة كنزة . ملأت حقيبة كبيرة بالملابس التي بادلت بها بحارة البواخر التجارية أشياء من الصناعة التقليدية المغربية . بعضها اشتريته من سوق المستعملات . سأبيعها للتلاميذ في العرائش خلال أيام إفلاسي . قبل سفري بيوم دعوت ربيعة للسباحة والغداء في أحد مطاعم الشاطئ . سبحنا وجرينا ولعبنا . بصدق على كنزة في خيالي وأنا ألاعب ربيعة في الماء . نطفو ونغوص ، نفرج ساقينا بالتناوب ونير كلانا من فجوة الفخذين . كل مرة نُبعد المسافة حتى يفوز أقوانا . تذكرت ما قاله الإسباني لرفيقه في حانة خينزال :

CADA AMOR SE OLVIDA CON OTRO AMOR

RECOR DAR EL PRIMER AMOR ES AMAR SEGUNDA VEZ

كل حب ينسى بحب آخر .
أن تذكر الحب الأول هو أن تحب مرة ثانية .

لكنني لم أستطع أن أستبدل حب كنزة بحب ربيعة . إن الحب لعنة وكنزة لعنتي .

في مطعم بويرتا ديل الصول حكت لي ربيعة دامعة العينين عن موت أمها . أبوها تزوج بعد موت أمها في أقل من شهر . لم تكن زوجة أبيها تحبها وتكره أن تربى أخاها الذي أخرجوه من بطن أمها بالقىصرية . في ليلة ذهبت زوجة أبيها إلى عرس . غلب النوم ربيعة في فراشهما . عاد أبوها سكران ونام معها عن غير قصد . حكم عليها أن تهجر مكناس أو يقتلها .

قلت لها :

- قد يحدث هذا عن قصد أو غير قصد . قد يحدث أكثر من هذا .
كَفَ دمعها واستراحت عينها .

7

فِلَادِيْلَة

جلسنا في قهوة سترال . أخرج من تحت جلبابه كتاباً و مده لي :
- هذا عمل عظيم . أحسن ما يمكن لنا أن نقرأه .

كانت رواية الرئيس لفكتور هوجو . نقل جزءاً منها إلى العربية حافظ ابراهيم بلغة القواميس القديمة . طلبنا قهوتين بالحليب . أخذت أقرأ له . معظم الكلمات لم أكن أفهمها . ألفاظ غريبة صعب على نطقها . المختار يعرف معنى كل الكلمات تقريباً . في مشرب المقهي كانت هناك امرأة تشرب مع جماعة من الاسپانيين . تضحك كثيراً ، يغازلها ثلاثة . بين لحظة وأخرى تنظر الي . ابتسامتها مشرقة . بادلتها ابتسامتها الوديعة . ماذا يخامرها ؟ فكرت أن للنساء نزواتهن . وضع لنا النادل القهوتين وقال :
- القهوتان على حساب السيدة فطيمة .

قد لا تكون نزوة . ربما هو احسان بنا . لا شك أنها تعرف

المختار . شكرتها بنظرة باسمة . قبل أن أسأله قال :
- تعيش على هواها مع الأسبانيين . تحاشر العشرة مع المغاربة ،
لكنها امرأة طيبة .

المختار يعرف أسماء الأشخاص من أصواتهم أو مجرد لسهم ،
إذا كان يعرفهم شخصيا .

في المعهد لم تكن الدراسة قد بدأت بجد . القسم الداخلي لم يفتح بعد . كان علينا أن نتدبر مأوانا ، وأكلنا ، نحن الوافدين على المدينة من البوادي أو من المدن الأخرى . في زنقة القائد أحمد كان هناك هرثي ملكاً للأوقاف . عندي حوالي ألف بسيطة . وصل حميد وقبلوه في مدرسة المعتمد بن عباد . استطاع أن يتسلم مفتاح الهرثي . في الليل نشعل أخشابا في أحدى حجرتيه التي نجلس وننام فيها . نستضئ بالشمع . نشتري زجاجة روم نيجيريتا لنجتمي بها من برد الليل القارس ، ونختبر الحنين إلى طنجة . علقنا لوحًا أسود قد يما على الجدار . ننجذب عليه العمليات الحسابية ونتبارى في كل المواد الدراسية . تعرف حميد على فتاة عاشت فترة في طنجة سحقها فيها صعاليك الليل . صارت تشاركتنا وحدتنا حين لا تكون مدعوة لتقضي الليلة كلها مع زيون سخي . تطبع لنا ، وتشرب معنا ، وتساهم في النفقات . فتاة لم تخلق أبدا للدعارة . قليلة الكلام حضورها حميم . ينام يبتنا على مضجع واطئ صنعناه من الكرتون ، وأمزاق الثياب البالية ، والجرائد . لم يكن يسوقها تناوبنا على التدفء بجسدها الحار ، لكن الجنس رغبتها فيه أقل من رغبتنا . نوع من التطهير يجعلها سلبية معنا . ربما مع كل من ينام معها . ربما لا تريد منا غير صداقتنا ! لكننا لم نكن نعرف صداقته الرجل للمرأة دون جنس . إنها أنسى ونحن ذكران نفترس أنوثتها . انتحابها ، أحيانا ، وهي يبتنا ، يحزنني . حميد لا يبالي بها . لم نكن نقدر أن نراها تنام بعيداً عنها . مات أبوها وهي طفلة . رعتها عمتها . لم يكن لنا ،

حميد وأنا، أي مصدر لكسب بعض النقود . بسيطاتي تنفد . حميد جاء مفلسا من طنجة . ذات صباح قال لي :

- تَزَيَّنِ الْيَوْمَ بِأَحْسَنِ مَا عَنْدَكَ مِنْ ثِيَابٍ .
انه يوم أحد .

- لماذا ؟

- سترعف فيما بعد .

عندى سترة وبنطال لا أَبْسُهُمَا إِلَّا فِي أَيَّامِ الْعُطُولِ دُونَ مَطَرٍ .
اخترتُ قميصاً أبيض ، ورباطة عنق زاهية الألوان .

- لا تنس أن تحمل محفظتك الجلدية وقلمك الذي لا تكتب به دروسك .

- لكن لماذا كل هذا البهرج ؟

- عندى مشروع جيد .

- ما هو ؟

- هناك كثير من العاطلين الوافدين على المدينة من الباادية يبحثون عن الشغل .

- وبعد ؟

- سأصطاد اثنين أو ثلاثة . سأقول لهم انك صديق الكاتب الخاص لباشا المدينة . ستكتب رسالة لكل واحد منهم تقول فيها : " ان حامل الرسالة في حاجة الى شغل فالرجاء أن تشغله " .

- هكذا ببساطة .

- نعم ، هذا ما ينبغي لك أن تكتبه .

- وإذا قبضوا .

- من ؟

- الشرطة أو الضحايا .

- سترنكر . ألا تعرف كيف تذكر ؟ أين أيامك في طنجة ؟

- وخط يدي ، كيف أنكره ؟

- اكتب بخط غير الخط الذي تعودت أن تكتب به . لن يمتحن الخبراء خطلك في مثل هذه القضية .
- أنت المسؤول عن العواقب .
- أنا الملعون ، لكن أبلغ لسانك .

ذهب بحثاً عن الضحايا . قصدت مقهى " النجمة " في كامل زينتي . كنت أقرأ عرائس المروج لجبران خليل جبران عندما عاد مصحوباً ببدوين . صافحاني باحترام بالغ . احسست بحرج . رجوتهما أن يجلسا .

ساحتهم جدّاً بائسة . حميد جلس ليشرح لي طلبهما . لم أتعود على مثل هذا الغش . موقف كان أقوى مما مارسته من غش . أرشف من قهوتي السوداء . طلبوا براد شاي أخضر . حميد لا تهمه الوسيلة التي يتدبّر بها الإنسان عيشه . في مثل هذه الظروف الضحايا لا يمكن أن يكونوا إلا من طبقتنا .

كل شيء يجوز لنا من أجل إنهاء دراستنا . عليهم هم أيضاً أن يسرقوا غيرهم كما نسرقهم نحن .

هكذا قال بعد انصراف الضحيتين . اتفق معهما على مائتي بسيطة لكتابة الرسائلتين . كتبت في كل واحدة : " أنا الموقع أسفله ... مواطن مغربي ... أبحث عن أيّ عمل . الرجاء أن تشغلوني . والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه . "

لا يعرفان التوقيع كتابة . قطرت قليلاً من مداد قلمي على ورقة وجعلتهما يوقعان باباهما . كان يوم أحد آخر عندما كنا نتجول في طريق ريال REAL . لم يكن معنا ما نُفهِي به . معنا بعض سجائر نتناول على تدخين الواحدة منها . تخلف حميد ورأئي يتفرج على واجهة متجر وأنا أنتظره متفرجاً على واجهة أخرى . سمعت زعيقه ، أحدهما قابض على حميد والآخر رأني فقصدني يرعد ويصرخ . جريت بكل قوائي . دخلت في زقاق . هناك باب ثانوي لمسجد

الجامع الكبير . خطر لي الاحتماء في المقدس . دخلت راكضاً بحذائي . في المتوضأ انزلقت ولم أسقط . التفتُّ ورائي . ولد القحبة يخلع حذاءه . لا مكان للاحتماء هنا . لم أخلع حذائي . صلاة الظهر . أقفر على ظهور المصلين راكضاً بينهم . تبللوا . خرجت من الباب الرئيسي . وجدتني في ساحة سوق الكبيبات . صحت في أبناء الزانيات :

ـ عودوا إلى الصلاة . لم يحدث شيء .

ـ لا آذان لهم . اللعنة على الأرانب البشرية . يركضون ورائي . تبلل باعة سوق الكبيبات . تكاثر مطاردي . اذا جرى أرباب جرت أرانب . قصدت 'عين شقة' . توقفت عند السور المطل على البحر . من بعيد ، رأيت بقية مطاردي يتوقفون مبهورين ، بلهاء . الهث مستنداً على السور ناظراً اليهم . في عيونهم شرّ وتوّجّس . مأثر كهم لا يعرفون . من جديد مشوا في اتجاهي ببطء ثم راحوا ، شيئاً فشيئاً ، يركضون . استأنفت سباقي . رأيتهم يتوقفون ويتكلمون ثم يرجعون وهم يتقاربون . توقفت ساعلاً لاهنا . استندت إلى السور . نسيم البحر يخفف من تعبي .

ـ في المساء ، ذهبت إلى الهرمي . وجدت حميد مع سعيدة . عينه اليسرى متورمة ، وفي منخره قطن . نظرت إلى سعيدة مثل نمرضة من أخوات الاحسان تُعنى في دير بجريح خاض حرباً في القرون الوسطى . تناظرنا ، أنا وحميد ، لحظة ثم انفجرنا ضاحكين في صخب هيستيري . قال :

ـ أنت محظوظ . لقد أفلت من مطاردك . انه أقوى وأخبث من زميله . عاد ، ولد الزنا ، وتضارب معي ورفيقه يحاول أن يخلصه مني . تدخل بعض المارة وأنقذوني من الذهاب معهما إلى مركز الشرطة ، لو قبضك لمرّغك في الأرض .

ـ دقات خفيفة على الباب . فكرت : دقات انسان غريب

خجول . فتح حميد . ناداني . فطيمة الضاحكة . ماذا تريد ؟
تسللنا باسمين . اضطررت ملامح وجهها . زيتها بسيطة . لم تبالغ
في تجميل وجهها كما تعودت أن أراها في مقهى ستراي . قدمت لها
حميد ورجوتها أن تدخل .

- ليس اليوم . شكرا . أريد أن أتكلم معك .

استأذنت حميد وصحتها . نظرلينا لا مباليا .

- أدعوك للعشاء معي في بيتي . لم تجيء إلى مقهى ستراي منذ
أيام . ترقبتك هناك وسألت عنك النادل .

- في هذه الأيام ، أعود من المعهد مباشرة إلى الهرمي لأراجع
دروسي .

تسكن في طريق ريال . بيت صغير : حجرة ، ومطبخ ،
ومرحضة . الأثاث نظيف ومتواضع . على الجدران صور في إطار
زجاجية حواشيه ملصقة بشريط أحمر . رائحة توابل ولحم .
تحلّب فمي . تضاعف جوعي . تركت الحجرة مضاءة عندما
 جاءتني إلى الهرمي . زجاجة فرمون وشطائر ليمون . لا شك أن
حميد يلعن الآن النساء .

- هذا ما عندي اليوم .

تناхينا . شربت ثم وضعت كأسها كأنما تذكرت شيئا .
- أنا راجعة .

تأملت الصور على الجدران : فردية وجماعية مع إسبانيين .
هناك صورة رجل وامرأة شيخين . أبوها ؟ صورة لها مع طفلة .

- هذه بنتي سلوى .

طفلة خجول . باسمة .

- بوسية .

الصقت فمها الدافء على خدي . بوسة خفيفة على رأسها .
أكره الملاعين الذي يبوسون الأطفال في الفم أو قريبا منه . يعصون

أفواه العاهرات ، وقد يلعقون الفروج . لا رجل تقي ولا فرج نقي .
هذا ما يقوله حميد .

-عمرها سبع سنوات . تدرس في التحضيري .

ابتسمت لها وأجلستها إلى جانبي .

-هذا السيد هو الذي سيعملك عندما تعودين من المدرسة .

حملت إلى دفاترها . تصفحتها .

-نتائجها جيدة .

-أريد أن تتعلم حتى تصير طبيبة أو أستاذة . أليس كذلك يا سلوى ؟ لا أريد لها أن تصير مثلـي . أنا لم أدرس غير ثلاث سنوات في معهد الراهبات الإسبانيـات . تعلمت الخياطة ، والطـرز ، أكثر مما تعلمت الكتابة والقراءة .

لأول مرة أسمع عن طفلة مغربية اسمها سلوى . تبتسم منكـشـة على نفسها . أثناء العشاء كانت تـمـزـقـ قـطـعـةـ لـحـمـ تـضـعـهـاـ تـارـةـ فيـ فـمـ سـلـوىـ وـأـخـرىـ تـمـدـهـاـلـيـ . تـرـنـ كـأسـاناـ ، فـرـحـتـهاـ هـوـسـتهاـ . أـخـذـتـ سـلـواـهاـ ، بـعـدـ العـشـاءـ ، عـنـدـ الجـارـةـ التـيـ تـرـبـيهـاـ .

-لـمـاـ لـاـ تـرـكـيـنـهاـ تـنـامـ مـعـكـ ؟

-أـعـودـ مـتـأـخـرـةـ فـيـ اللـيلـ ، وـلـاـ أـسـتـيقـظـ باـكـراـ . هـيـ تـفـيـقـ فـيـ السـابـعـةـ لـتـذـهـبـ إـلـىـ المـدـرـسـةـ فـيـ الثـامـنـةـ .
سـأـلـتـهـاـ عـنـ مـسـقـطـ رـأـسـهـاـ .

-ولدت في العـرـائـشـ ، لـكـنـ أـبـوـيـ مـنـ "ـاثـنـيـ سـيـديـ الـيـمانـيـ"ـ .
أـمـيـ مـاتـتـ وـأـبـيـ عـادـ إـلـىـ قـرـيـتـاـ . إـنـهـ الـيـومـ مـتـزـوجـ وـيـفـلـحـ أـرـضـنـاـ .
غـتـلـىـءـ بـالـنـشـوـةـ وـالـإـلـفـةـ . لـاـ يـدـوـ عـلـيـهـاـ الـآنـ أـيـ قـُـحـبـ وـتـَغـنـجـ
كـمـاـ تـكـوـنـ فـيـ مـقـهـىـ سـنـترـالـ . مـحـتـشـمـةـ فـيـ حـرـكـاتـهـاـ وـرـقـيـقـةـ فـيـ
صـوـتـهـاـ . عـنـدـمـاـ نـصـمـتـ يـنـتـابـهـاـ شـرـودـ حـزـينـ ، لـكـنـهـ حـلـوـ فـاتـرـكـهاـ
لـنـفـسـهـاـ وـأـتـلـهـىـ بـرـقـيـةـ الصـورـ عـلـىـ الـحـيـطـانـ . عـنـدـمـاـ يـشـرـقـ حـضـورـهـاـ
أـشـارـكـهـاـ مـرـحـهاـ .

قابلت المختار الحداد في الشارع . وحيدا يسير . أوقفته . تلمسني
ثم انتقلت يده الى ذراعي متزلقة حتى قبض على يدي :
ـ شكري . أنا أبحث عنك . سألت عنك في مقهى ستراو .

هل تذهب الى هناك ونقرأ ؟

ربما يتعرف علي أيضا بالشم . يحمل قصة "ليلي المريضة في
العراق" لزكي مبارك .

ـ لا أملك ثمن أي مشروب وعندي سيجارتان فقط .

تابط ذراعي وذهبتنا الى مأوى المعهد الديني ليستدين من تلميذ
بدوي يقيم هناك . في بهو المبنى اتجه الى اليسار وأخذ يتلمس
الأبواب . عند الباب الثالث توقف وطرق . لم يجده أحد . الباب
غير مغلق بالفتح . فتحه ودخل . خرج ملتفتاً يميناً ويساراً ليزري
بسمعه كعادته . يحمل شيئاً تحت جلبابه . يمسكه بيده من خلال
فتحة جيب الجلباب .

ـ ماذا هناك ؟

ـ اسكت . انه موقد البترول . سنبيعه . أتنى ألا نلتقي به قبل أن
نخرج من هنا .

ـ من ؟

ـ صاحب الموقد . أراجع معه دروسه العربية .

تركته يتظرني قرب أحد أقواس الكبيبات ورحت عند المطعمي
السلهامي . وجدته ماسكاً فرحاً جا من جناحه .

ـ أيها الفروج العزيز ، لقد حان أجلك المحتموم . ليس على
ييدي وانما على يد الذين يطلبون لحمك . اني مضطر الى أن
أنفذ فيك هذا الحكم وأنا شديد الأسف والحزن عليك . لن
نخلص بعد اليوم بالحبوب ، والقفز على الإناث المغرورات اللواتي
يقضين وقتهن كله في البحث عما يأكلنه . أما أنت فرأست دائمًا
شامخ . انك تنظر الى السماء أكثر مما تنظر الى الأرض . وداعاً

أيها العزيز اللطيف الجميل .

ثم ذبحه بالموسى ورماه ليتمرغ ويتنفس . انتصب لحظة جاحظ العينين وقفز لينهار وهو يتنفس . من عادة السلهمي ان يخطب على كل فروج يذبحه . لم يكن قط يذبح الدجاجات ، لأنها لا تصلح الا لتلد ، ان لحمها غير لذيذ ومترهل ، لأنها تستهلك نفسها في ولادة البيض والقلق على ما تلد . هكذا يقول . يذبح كل فروج بالموسى بدل السكين حتى لا يتذهب . ان الفروج فيه روح وليس كمنجة كما يقول . بعث له موقد البترول بثلاثين بسيطة . سأله عمما إذا كان مسروقا ، أقسمت له أنه لصديق تلميذ في حاجة الى نقود لشراء دفاتر .

افتسمنا المبلغ . قبل أن نذهب الى السنترال طلب مني أن نمر على الدرب الذي تسكن فيه معشوقته "البتول" . قرب منزلها توقف وتأوه ثم عدنا . فكرت : لقد شُمّ دربها . كان المختار يُحيي تقاليد الحب العذري عن صدق . وسيموت بعملية جراحية في قلبه الضعيف العاشر عام 74 .

- هي أيضا تحبك ؟

- لا أدرى .

- أعتقد أنها تعرف .

- لكن لا يهمني أن تعرف أولاً تعرف .

- تتكلمان ؟

- ليس على انفراد . عندما تكون مع رفيقاتها في المعهد أو مع إحداهن تتكلّم قليلاً وتسالـ .

جلسنا في مقهى السنترال وأخذت أقرأ له ليلى المريضة في العراق وهو يتاؤه ويسرح لي ما لا أعرفه من الكلمات .

في المعهد رأيت اسمي ضمن قائمة الممنوحين في القسم الداخلي . كان يوم سبت . يوم الاثنين سيفتح . فرحت وهنأتني

فطيمة بثلاث قبلات على خدي . انه يوم الأحد . وجدتها تتعجل
لتبدأ يومها الاحتفالي في الحانات .

-إياك أن تقطع عن زيارتي وتعليم سلواي . ابني أعرّل عليك .
-سلواك هي سلواي .

دست لي عشرين بسيطة في يدي مشرقة الوجه . لم أرفض .
لقد عودتني . إن لها حرفه وأنا يتظرنى العام الدراسي كله من
الإفلام المادي قبل أن تأتي عطلة الصيف وعودتي إلى طنجة .
أعطيت درساً لسلوى وأصطبجتها في جولة . اشتريت لها
شوكلاته بما أعطته لها أمها . تحولنا ولعبنا في الحديقة العمومية ثم
أعدتها إلى مريتها للأفاطنة .

ووجدت حميد يقرأ وسعيدة تطبخ طاجينا من السمك . فوق
الصندوق زجاجة نبيذ ، وكأسان منصفان .

لا شك أن سعيدة هي التي تسوقت . حميد مفلس .

في القسم الداخلي لم أشعر أنني أعيش في امتياز ، السرير
نظيف ، الأكل أجود من مطعم المدرسة الابتدائية ، لكن طاعة قانون
الداخلية الصارم يولد في نفسي توترًا شبيهاً بحيوان قي قفص . كنت
في غرفة أكثرية المقيمين فيها من أبناء البورجوازيين الذين جاءوا من
مدن شمالية . فكرت أن أطلب من الادارة أن تقلنني إلى غرفة أخرى
أغلبهم فيها بدويون ، فقراء مثلي ، لكن من أكون أنا حتى أطلب ؟
قد يطلبون مني تبريراً ويحدث ما لا أتوقعه من سوء . الأسرة كلها
مزدوجة . فراشي فوق ، التحتي يحتله رفيق من القصر الكبير يعتزل
عشرة الرفاق . لم يكن يهتم إلا بالرياضيات . المواد الأخرى يكتب
بعضها ولا يراجعها . هندامه مُهمل . يحلق وجهه مرة في
الأسبوع . يحمل دائمًا دفترًا يملؤه بتمارين الجبر والهندسة . يكتب
على أرض الغرفة ، وأبواب المراحيض ، وأينما كتب له الطباشير
عملياته . على الجدران الجيرية يكتب بالقلم الرصاص . يحفظ

دائماً في جيبي بشمعة يشعلها عدة مرات في الليل ليحلّ احدى العمليات الجبالية على الأرض . نومه متقطع . يبول عدة مرات في الليل . أول من يتداس في الفراش وأخر من يغادره . الإفطار في مطعم المعهد غالباً ما يفوته ، لكنه من أسرة موسرة كما سمعت . توقظني كوابيسه ، يحلم متكلماً . جمله قصيرة وبهمة . أحياناً ، يجب من يكلمه بهز كتفيه أو بسمة لا يفتر لها فمه ثم يبتعد . قلت لنفسي : على الأقل ، هذا الرفيق لا يشبه أحداً في الغرفة وإن يكن من طبقتهم . يقضون وقتاً في التائق ، وبرنزة وجوههم بالحلاقة كل يوم . منهم من يحلق مرتين إذا كان له موعد في المساء مع فتاة . في أيام العطل يتزاحمون على مرآة المغاسل ليحلقوا وجوههم . أنا لا أنتظر نوبتي . أملاً سطلاً بالماء وأنحنى عليه فأرى انعكاس وجهي غائماً فأحلقه . سألني أحدهم :

- كيف تعلمت حلاقة وجهك هكذا دون أن تجرحه؟

- في أسفل بطني . لقد جرحته مرات عديدة حتى لا أخرج وجهي .

يتقدنا المدير في المطعم وفي غرف النوم . درس في القاهرة . نعتبره مرجعنا في كل ما يستعصي علينا في الحضارة العربية . لا يتذمر قطًّا من يسأله . كنت أكثر سائليه . مرة التقىته في الشارع ورجوته أن يشرح لي بيت أبي العلاء المعري :

خُلُقَ النَّاسُ لِلْبَقاءِ فَضَلَّتْ * أَمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
شرحَ البيت ، وتكلم عن حياة الشاعر ، وعصره ، ومذهبه في الوجود . أحياناً ، كنت أراه في المعهد أو خارجه يتمتم وحده فأقول لنفسي : ربما هو الآن يتلو سورةً من القرآن أو شعرًا كلاسيكيًا .

لم أنسَ مفهوي السي عبد الله . حميد نادراً ما يرتاده . يفضل الجلوس مع السلهامي في المطعم ليأكل ما تيسر ، ويدخن الكيف معه ، أو مع منفريه في دكان حلاقته . يشرب معه النبيذ في المساء

أو في النهار أيام العطل المدرسية . في معظم الأحيان لا يستقبل مونفريير سوى الوافدين على المدينة وقلما يرجعون إليه بسبب ادمانه . لقد أصبحت يداه ترتعشان في الوجه . لم يعد يأتي عنده ، من المدينة ، إلا السكارى مثله .

يسافر معظم الرفاق في أيام الإجازات . صباح يوم الأحد هذا بارد وغائم . سأشرب شاياثم أذهب لأعطي الدرس لسلوى . سبعة أو ثمانية رواد . اثنان يلعبان الورق . قال السي عبد الله لرجل ضخم مشيرا إلى :

-ها هو واحدهم جا .

أجلساني إلى طاولتهما . إلى جانب الرجل الأدرد (عديم الأسنان) بنديسر . قال السي عبد الله للرجل البائس وهو يقوم إلى الوجاق :

- هذا الطالب هو الذي سيحل لك مشكلتك.

سألني كمن لا يصدق :

- أحقاً أنت طالب ؟

-نعم ، ما هي مشكلتك ؟

- كل شيء يعرفه السي عبد الله .

حضر لي الشاي وجلس .

- هذا الرجل المسكين يريد أن يتزوج مسكينة مثله . العدول طلبوا منه ما ليس عنده من المال ليكتبوا له عقد النكاح . هو حلايقي (1) وهي تبيع البخور . اكتب لهما عقد الزواج ونحن شهود والله هو أكبر شاهد على هذا العقد المبارك . مسكين تزوج مسكينة .

لم أفك في أية شريعة تمنع ما سأقوم به . إن الفقر فوق القانون .

قلت :

- ولماذا لا ، على بركة الله !

(1) الراوي الذي يروي للناس حكايات تاريخية أو رضائية أو حكليات خرافية تراجيدية أو ملحمية .

خرج الحلايقي وعاد يصطحب امرأة مجلبة وملثمة. عينها
اليسرى حولاً. تحمل قفة مليئة بالمتاع. أدخلنا السيّ عبد الله الى
حجرة. جلسنا على الحصير الذي هو كلُّ أثاثها. أحضر لي ورقتين
بيضاوين. تركني أكتب العقد وخرج. سجلت أيضاً متاع كلِّ منهما.
سلمت للرجل نسخة وأمنتُ الأخرى عند السيّ عبد الله. جاءنا
بالشاي مرة أخرى ودعا بالبركة. رفعتنا، أنا والسيّ عبد الله ، أيدينا
وشرعت أقرأ دعاء الخير والسيّ عبد الله يرد آمين. ثم أخذت أتمّ
بصوت خفيض قصيدة مهيار الديلمي التي أحفظها عن ظهر قلب.

أعجبت بي بين نادي قومها * أم "سعد" فمضت تسأل بي
مَدَّ لي الرجل أوراقاً ملفوفة رفضتها قائلاً :

- أبداً لا. انه عمل خير.

الْحَ :

- خذها ، إنه قدر قليل من أجل الفتوح.

أضاف السيّ عبد الله :

- لا بأس ، خذ منه هذه البركة.

انصرف الزوجان فقال لي السيّ عبد الله :

- هذا أعظم عمل خير تقوم به في حياتك. سيكون لك مستقبل
عظيم إن شاء الله.
- آمين.

ذهبت عند فطيمة. استقبلتني بابتسامة باهتة. عيناها راشحتان ،
شاحبة ، يدها رخوة وباردة. قبل أن أسألها عما يحزنها بادرتني :

- سلوى مريضة. محمومة. لا تأكل.

- مرض الأطفال سريعاً ما يزول.

سلوى نائمة على سرير أمها. فوق طاولة صغيرة ، قرب السرير ،
كأس عصير برتقال منصفة.
- غداً سأخذها عند طبيب أعرفه.

تبعد كمالاً أنها لم تفرج قط في حياتها. تجتمع فيها كلُّ حزنها.
في مثل هذه الساعة من كل أحد أجدها تتجمل أو في كامل زينتها.
سيغيب عنها اليوم عالم نشوتها، وجمالها، ولطفها. مرض سلوها
أقوى من كل لذاتها.

خَيْرِتَنِي :

- شاي أو قهوة؟

رفضت بلطف. وعدتها أن أعود في المساء. في الشارع أحست
بكابتها تتعكس على نفسي. وجدتني في الحديقة العمومية. الجو
غائم. لا أحد هناك. استعدت سلوي بين الأطفال الأسبانيين يلعبون
وأمهاهم جالسات يحبكن الصوف ويترثون وينهين أطفالهن عن
مخاطر بعض أنواع اللعب وأم سلوي ترنّ كأسها مع الكؤوس في
السترايل. بدأت ترش قطرات كبيرة والريح تهب. خرجت راكضاً إلى
الهري.

عشرات من أكياس الإسمنت.

- ما هذا؟

- سينون المسجد الذي دشنه محمد الخامس في القصبة.
سيعطيوني المقاول الأسباني خمساً وعشرين بسيطة كل يوم مقابل
استعمال الهري حتى يتم بناء المسجد. إنها ثروة نزلت من السماء. إن
الله قد يرمي، أحياناً، أمثالنا في بحر هائج، لكنه لا يغرقنا.

- وسعيدة؟

- ذهبت إلى السوق.

يراجع درساً في تاريخ الفينيقين في المغرب. قال :

- أعتقد أن الفينيقين هم أول من علم المغاربة القراءة والكتابة؟

- لقد جاء قبلهم عبدة الصخور (الدرو ديون) لكن اللغة
البربرية أصلها سام كما يقال.

جلست. فوق الصندوق - الطاولة نصف زجاجة نبيذ. ملا

١

قد حين صغيرين . - لقد قبل مدير المعهد تسجيلي مستمعا . إذا سقطت فسأعود إلى طنجة لأصير أكبر قواد أو لص أو مجرم . كل شيء مباح اذا لم أفتح في دراستي . أنت أيضاً لست أفضل مني .
ستعود لتعمل في أحد المقاهي أو في المبناء ..
أنه على حق . أنا ليست لي أصابعه السحرية التي ينشل بها الجيوب .

شرينا ما تبقى من القدحين .

- فطيمة حزينة لأن ابنتها مريضة .

- القحاب أكثر حرضاً وقلقاً على أولادهن من النساء المتزوجات .

دخلت سعيدة حاملة قفة الحاجيات تصحبها فتاة . قدمتها :

- عائشة .

أجلسها حميد بحديقة على صندوق . انه لطيف في حضورهن وشائمهن في غيابهن . أشعلت سعيدة سيجارة وانهمكت في الركن - المطبخ لإعداد الغداء . تناظرنا خفية أنا وحميد حول الوافدة . أخذت مني سيجارة . أشعلها حميد ثم سألها :

- من أين أنت ؟

- من القصر الكبير .

- أنا من أزيلا . نحن جيران اذن .

أعطيته عشر بسيطات لشراء زجاجة نبيذ .

- ابق معنا للغداء .

- يسجلون الغيابات . اذا كثرت فسأفقد منحتي في القسم الداخلي . سأعود بعد الغداء .

قابلت المختار الخداد متمنياً وحيداً بين أقواس الكبيبات . كعادتي معه ، اعترضت طريقة . هذه المرة نطق اسمي دون أن يلمستني . أصار أيضاً يتعرف على رائحة جلدي ؟ يتآبطن السمفونية الريفية لأندرني

جيد . ترجمها الى العربية حسن صادق عام 38 . قال :
- سمعت أن هذه القصة هي من أروع ما كتب هذا الكاتب
الفرنسي . سترأوها ، إذا شئت ، هذا المساء .

وافقت دون توقيت . طلب مني أن أصحبها الى درب محبوبته
البتول . ثلات تلميذات مقبلات . ينظرن إلينا ضاحكات . تکهرب
جسد المختار وشدّت يده على ذراعي بقوة وقال :

- ها هي مقبلة مع صاحباتها .

- إنهن ثلاثة .

- أقصرهن وأجملهن . وجنتها موردان .

- صحيح .

- تصرف كان شيئا لا يحدث . لا تبالغ في النظر اليهن .

عندما مررن قدامنا تهامسن . قال :

- أحداهن سأبدأ أبداً اعطاءها دروسا في العربية .

- أين ؟

- في منزلها .

- من هي بينهن ؟

- السمراء .

ودعني قرب المعهد ليقود نفسه في الطرقات التي يعرفها جيداً .
في الرابعة ذهبت عند فطيمة . فارقتها كابتها . سلوى جالسة على
الفراش . خدّاها موردان . جلست أمها جنبها وباستها . لاطفت ذقنها
وشعرها . نظرت سلوى الى كأنها تراني لأول مرة . ربما افقدتني .
نظراتها شاردة . ملات كأسين من المريني ومدّت لي كاسي . عبد
الوهاب يعني في الراديو : " جفنه عَلَمَ الغزل " لا مشابهة بينهما مع
ذلك فقد تذكرت سلافة من خلال فطيمة . هذه لم أرها أبداً غاضبة ،
لكن يبدو لي أن أدنى حادث يقع لها يُقدّها مرحها .

وجدته وحيداً . راديو قديم من نوع رسيا R.C.I.A ينبعث منه

الفلامنكو. مصباح كهربائي معلق الى الحائط يضيء الحجرة في
وضوح. الراديو هدية من موتفير الحلاق. لم يستعمله منذ سنوات.
الكهرباء سرقها حميد من الزفاق. استعمالها لا يمكن إلا في الليل.
ينبغي فك السلك وسحبه الى داخل الهرمي. في الصباح الباكر أو في
الليل قبل النوم.

- والسلم لفك السلك؟

- وأشار الى الصناديق :

- هذه سلمي.

- وسعيدة وعائشة؟

- خرجتا للتحببا. ستايان بزاد المساء. لم تجيء بعد الغداء.

- نعست قليلاً ثم ذهبت عند فاطمة. ابتها تحسنت.

- اجلس.

- سأعود الى القسم الداخلي. يسجلون الغيابات كما قلت لك.

- طرفي الغيابات! عائشة ستبث معنا. إنها لك وحدك.

عادت عائشة وسعيدة حاملتين بضائع وزجاجتين من النبيذ. طرفي الغيابات اذن. كسب العيش يتظارنا دائماً في طنجة. صرت أعرف القراءة والكتابة. لن أحتاج الى من يقرأ لي رسالة أو كتاباً. كان هوسى الكبير هو أن أحد من يقرأ لي مجلة عن حياة الممثلين. تذكرت العيش مع فوزية ونعيمة صحبة حميد، في فندق القصبة، بمزيج من الحسراة والسعادة. وضفت سعيدة وعائشة حمولتهما. خطف حميد زجاجة وفتحها. الى جانبه دفتر مفتوح.

- ماذا تراجع؟

- درساً في تاريخ الأشوريين والبابليين.

- إنها مجرد معلومات نحسو بها أذهاننا. لن تسعننا في شيء.

- لا أافقك. كل جديد يلقي بالقديم. التاريخ هو التاريخ ولو كان ظالماً. صب في القدحين الوحيدين. شرب هو وسعيدة من كأس،

وشربت أنا وعائشة من الأخرى. دق على الباب. قام من على حافة الفراش حافي القدمين وفتح. كهل رث الثياب. ساعده حميد على نقل أربعة أكياس إلى عربة صغيرة. فكرت : انه كسب جديد ، لكن عواقبه سيئة اذا هم ضبطونا نسرق الأكياس ونبيعها. شغل حميد الراديو. صوت أسمهان : متع شبابك في ثيابنا ...

قلت :

- اذا اكتشفوا سرقة الكهرباء فإننا حتما سنطرد من هنا.

- حيثذا سنبحث عن مكان آخر. اننا لا نسكن في قصر. ليس لدينا ما نخسره.

انه دائما مستعد أن يبدأ حياة جديدة. لا يتعلق بشيء. في نظره، كل شيء هش وقابل للسقوط والانكسار. أنهى قراءة السيمفونية الريفية مع المختار في جلستين. كنا في مقهى سترايل. قال بصوت متنهد :

- لست أدرى لماذا يقسوا القدر على ناس طيبين ويتحالف مع الأشرار. ماذا فعلت جر ترود المسكينة حتى تلقى ذلك المصير؟

- أعتقد أن "الراعي" هو الذي جنى عليها عندما أحباها. لو تركها لابنه جاك لما حاولت انتحارها الفاشل الذي قادها الى اليأس التام والموت

- هذه احدى مساوى بعض رجال الدين. انهم يدنسون، أحيانا، ما يطهرون، لكن على الأقل ماتت جر ترود انسانة ولم تمت مثل بهيمة.

صار حميد يدرس معنا في المعهد. لم يكن يواكب على الدروس. وضعه تلميذاً مستمعاً يشجعه على التغيب. قدم في المعهد وقدم في طنجة. إذا فشلت اليوم يده في الكتابة فلن تفشل غداً في نسل جيوب الناس. أكياس الإسمنت، التي يبيعها في الليل ، أغرفته في السكر والتسلك. لا يقسم معي مناصفة. يعطيوني ما يشاء. انه سيد

الهُرُي والعطاء. يأتي بفتيات آخريات الى الهرى. ينام معهن أمام سعيدة. اشتري لنفسه ملابس جلدية يباهي بها الأساتذة، ومفتشي التعليم.

يختلف الى الخمارات كل يوم. اشتري لسعيدة وعائشة أثواباً جميلة لتغريا بها الذين يدفعون جيدا. رائحة العطور الاسانية التي تفوح منها ذكية. لقد حسارت من الدرجة الأولى في العهر كما يقول، كنا نجتاز امتحانات الفترة الثانية عندما وصلتني رسالة بالاسانية من مستشفى مرض السل في تطوان. خطها جميل يشبه خط الراهبات. "ان كاتبة هذه الرسالة تسلم عليك وتلع على أن تعود أمك في أقرب وقت ممكن."

في آخر يوم من الامتحانات ذهبت عند فطيمة وأخبرتها بسفرى. دست لي، بالحاج، في جيب سترتي، مائة بسيطة. "كل شيء سيفوت. ذات يوم ستصبح أستاذًا أو محاميًا وتنسى أنك كنت فقيرا". سلوى لم تكن حاضرة.

دعاني حميد للعشاء والمبيت في الهرى. وجلدت سعيدة وعائشة في أجمل زينتهما. عطرهما يدُوّخ. اشتري حميد أثاثاً مُستعملاً وزين الجدران بصور المثلثات المتزوعة من المجالات، وصنع مكتبة صغيرة من الأجر، والألواح العارضة. سأله :

-كيف تسير علاقتك مع المقاول الاسپاني؟

-رجل رائع. أجمل ما فيه هو أنه لا يلاحظ كثيرا. انه خبز الله كما يقال. حتى الآن لم يفقد ثقته فيـ، ولا شيء يثير الشبهات.

- انك تبالغ في تزيين نفسك وتأثيث الهرى.

- ألا تعتقد أنه أيضاً يسرق من أموال بناء المسجد؟

-ربما.

-ابلע لسانك اذن .

سعيدة وعائشة بدتَا أكثر جمالاً مما تعودت أن أراهما . حميد كان
أكثر حميمية . ربما أثاني هذا الشعور من كوني سأغيب عنهما حوالي
عشرة أيام .

أخبرني باع الخضر، أعرفه في الطرانكات، أن التفريسي صار يسكن في برج الأفعى. سنت سنوات دون أن نلتقي. وجدته في مقهى "السانية" يلعب الورق. ذهبنا إلى منزله. في الطريق بغايا واقفات على عتبات بيتهن أو يطللن ويختفين. كل حركاتهن فيها دعوة للدخول معهن. رجال وفتيات يغازلونهن. يسأل أحدهم عن ثمن الدخلة فيدخل أو يغادر إلى أخرىات.

قدمني إلى عشيقته الزهرة: شابة، فصيرة، مكتنزة وجميلة. وضعت حقيبتي الحقيرة على الأرض. أو صاحها أن تتظرنا للمغداء وخرجنا.

دخلنا حانة ريبيريتو. طلبنا نبيذ خيريث الأبيض. على الجدران رؤوس ثيران محظة. الحانة ما زالت تحفظ بعض مجدها. تلك أول مرة أدخلها. عرفتها وأنا طفل أخطف ما يتبقى في صحون طاولات

رحيتها. أشرب ما في الكؤوس من ليمونادا أو خمر وأجمع أعقاب السجائر الشقراء. الحانة الآن يرتادها موظفون، وتجار صغار مغاربة وما بقي في المدينة من عساكر إسبانيين. التفريسي يشتغل في الصيف بائع مثلجات مع إسباني. في الفصول الأخرى يتاجر في الخضار والفاكه بالجملة كما كنا نفعل من قبل. سأله عن عشيقته القدية «لطيفة».

-أوه، تزوجت ولها الآن ثلاثة أطفال. عاشرت كثيرات بعدها، لكن كلهن يرددن أن يتزوجن.

- ألم تفكّر في أن تتزوج بإحداهن؟
- أبداً.

- لماذا؟

- الرجل لا ينبغي له أن يتزوج قحبة.
- لماذا؟

- لا يمكن أن يكون لك أطفال مع قحبة.
- ما هو العيب؟

- سيعيشون معقدين عندما يعرفون أن أمهم كانت قحبة.
انه يحلم أن يتزوج امرأة لم تفسق حتى لا يكون أولاده معقدين، وحتى لا تخونه، أما القحبة فأكيد أنها ستخونه. لقد اضطررته أسئلتي فقال :

- لقد صرت محظوظاً.

- في أي شيء؟

- إنك تعلمت. صرت تفكّر جيداً في معرفة الأشياء.

- أنت أيضاً يمكن لك أن تتعلم في المدارس الليلية. لقد بدأوا يفتحون منها الكثير في المدن.

- فاتني الحظ.

لم أرد أن أناقشه طويلاً في أميته حتى لا أحزرنه، أما أنا

فيتظرني الجنون اذا لم أتعلم. شربنا كأسينا الآخرين ورجعنا
عنه للغداء. في المساء، صحببني الى حيناً سيدى طلحة. دقّ على
باب كوخ من القصدير. خرجمت ارجيمو. قال لها :
- ها هو أخوك محمد.

ابتسمت باضطراب ودمخت عيناهما. وضفت حقيبتي على
الأرض وتعانقنا. شمت فيها رائحة أسرتي كلها : من مات منها
ومن هو حيّ. سالت دموعها. أنا سالت في داخلي. بآن طفل. لا بدّ
أنه أخي عبد العزيز. قدماء حافيتان، ثيابه رثة، نحيف
وشاحب. امتنعت دموعها بابتسامتها المسروقة من حزنها وقالت :
- ها هو أخوك عبد العزيز.

رفعته قليلاً ومدته لي لتباؤس. كان في عامه الأول عندما
عدت من وهران عام 51 . انه اليوم في السابعة من عمره. لم يتعلم
بعد كيف يتسم او يضحك. شبه خائف. رجاني التفريسي أن أزوره
في داره وانصرف. في احدى الحجرتين وضفت بين ذراعي طفلةً
وقالت :

- وهذه أختك مليكة. عمرها عامان. لم تسمع بها.
- لا.

- أمّا تحسنت. لم تعد تبصق الدم. أبونا يذهب الى سبتة ليتاجر
في العسل.
- العسل ؟

- نعم، يصنعه من السكر وفضلات الشهد وبيعه للإسبان. يبقى
هناك يومين أو ثلاثة . محتمل أن يعود هذا المساء.
عندما عدت، مساء، وجدت جارنا عبد الحميد جالساً على
مقعد قدام باب كوخه. كان يتظرني. أدخلني. رأيت، في ركن،
حقيبتي مبعوجة.

- أبوك أحمق. نحن الريفيين قساة على بعضنا البعض أكثر مما

نحن قساة على غيرنا. لقد أراد احرارها. اختك ارحيمو هي التي استغاثت بي فأدركته يعجها قبل أن يحرقها.

احدى صورتي الكبيرتين في الحقيقة مكسور زجاجها ومشطر لوحها الملصقة عليه. الأهم هي شهادتي الابتدائية التي لم يلتحقها ضرر. آلح على جارنا أن أبيت عنده. تأبّطت حقيبي وودعته شاكراً إياه رعيناً دامعتان من الغضب.

في طريق عودتي الى دار التفريسيتي دخلت حانة في بورديل السانية وشربت كأسين من كونياك "ترى". دخنت باضطراب مفكراً في الذي لم أعرف بعد كيف أتخلص من وجوده في حياتي.

وجدت الزهرة تعد العشاء. استقبلتني بمرح بالغ. كتمت توّاري. التفريسيتي خرج ليشري الخبز. خامر تني فكرة شراء سكين والعودية اليه وطعنه أو تدبير وسيلة لاخلاء اخوتي من الكوخ واحراقه وهو نائم.

عاد التفريسيتي، آزرني فقلت له :

-أمي حكت لي أنه لطم أباه، وركله، وسبه أمامها في الريف.
لا بد أن تكون شجرة عائلته من المجرمين، والملائين والمجانين.

قالت الزهرة :

-الله يسترنا.

قال التفريسيتي :

-سيندم.

-لن يهمني ندمه.

فتح زجاجة نيد وقال :

-لتنس الليلة هذه المصيبة.

أخذ الزهرة قرب الباب وتهامساً. لبست جلابتها مسرورة وخرجت. سألته عن عزيزة وابنها عبد السلام.

-ماتت في العام الماضي مصدورة. قتلها الخمر والكيف. عبد

السلام محكوم بعامين منذ ثلاثة أشهر. أدين بعده سرقاته.
والسبتاوي؟

- هرب إلى سبتة. سرقا معا متجر اليهودي في سوق الطرانكاد.

لقد أفرغا ، في الليل ، صندوق ماله.

دخلت الزهرة تصاحبها فتاة رشيقه. استقبلها التفريسي :

- أهلاً مينة. غبت عنا كثيرا.

صافحتها وهي باسمة مرحمة. في الصباح جاءتني الزهرة بالفطور. رأيت فوق الصينية مائة وخمسين بسيطة.

- تركها لك محمد.

- ومينة؟

- تعمل عند أسرة إسبانية. تسكن معها. لا أحد لها هنا في تطوان.

انها من سامسا. (1)

تركت خمسين بسيطة لتعطيها لها. رفضت وهي تمدهالي :

- أنت في حاجة إليها أكثر منها. إنها صديقتنا.

أخذت فأخذتها. ليست محترفة إذن. لدى خروجي أكدت عليّ :

- سأنتظرك للغداء. حاول أن تجبي حوالى الواحدة.

(1) فرقة قرب تطوان

9

زيادة

أربعة أسرة. مريضة واحدة طريحة الفراش قرب سرير أمي. فتاة تحمل جمالها في مرضها. جمال المسؤولات : وجنتها موردتان. وضعت على الطاولة الصغيرة طرد الفواكه وبست رأس أمي ثم جلست على مصطبة صغيرة مستديرة بيضاء ، قرب سريرها.

-هذه هي الآنسة "الغالية" التي كتبت لك الرسالة لكي تجيء.

شكرت الآنسة الغالية وتبسمنا. احمرت وجنتها وسعلت عدة مرات بخجل. لا بد أن تكون قد درست عند أخوات الاحسان حتى تكتب بذلك الخط الجميل. أخبرت أمي عن زيارتي لأخواتي. لم أذكر لها ما حدث لي (معه). ذكرت لي أنهم لا يسمحون هنا للأطفال أن يعودوا ذويهم. لم تكن تعودها سوى ارحيمو التي كبرت. يعودها ، أحياناً ، جارنا عبد الحميد صحبة زوجته ، أما هو فلم يُعدْها فقط.

سعلت الغالية عدة مرات بحدة. بدا عليها الانفعال. تناولت

ملعقة من قنية صغيرة. البرد يغزو الحجرة من النافذة المفتوحة. قالت أمي :

- لا بد أن تبقى مفتوحة حتى ولو كان الثلج يتتساقط ليتجدد الهواء. تتغلب على البرد هنا بالأغطية الالازمة.

ذكرت لها بنجاحي في الشهادة الابتدائية. انفعلت فرحاً ثم دمعت عيناهَا وسعلت. سعلت أيضاً الغالية. لا بد أنني ذكرتها بدراساتها.

- هل رأيت أباك؟

- نعم. فرح بنجاحي في الدراسة.

كنت أعرف أن اختي اريحيمو ستقصص عليها كل ما فعله معي، لكن سيكون يوم آخر. دخلت امرأة وجلست على حافة سريرها، قالت لها أمي :

- هذا هو محمدي.

ثم سعلت. تبسمت مع المرأة وحييتها. الألم يتجسد هنا في كل الابتسامات المغتصبة، والكلمات المقتضبة، والحركات التي سريعاً ما تفتر. قلت لأمي :

- البرد لا بد أن يكون قاتلاً هنا في الليل.

- يغلقون شباك اللوح. الهواء ينبغي أن يبقى دائماً نقىاً. وعدتها أن أزورها قبل أن أعود إلى العرائش.

تغدّيت مع الزهرة وحيداً. قالت :

- يحدث له كثيراً إلا يأتي للغداء أو العشاء. قد يكون الآن يلعب الورق ويسكر في نفس الوقت. غالباً ما يخسر لأن اللاعبين معه يعرفون ضعفه في السكر. لا يعرف كيف ينسحب في الوقت المناسب اذا ربح.

أبول باستمرار. قلمي يؤلمني كلما بللت أو التوى. قليل من الصديد يسيل منه. يؤلمني أكثر عند الانتصاب. الحشمة تحرّر وبالغة الحساسية مع عاتقي وسريري. أنها عاهرة اذن في مسوح العمل.

10

عسل الجمال البشري

وصلت إلى طنجة مساء . حجزت غرفة في بنسيون لا بلاتا .
و بين بولة وأخرى بشر من القبح في ثقب قضيبه . حمى
خفيفة ودوار . تكاسلت في الخروج للعشاء . بت أقرأ سيرانو در
برجراك ، وأدخن باضطراب ، وأبول بألم . مسكون دويرجراك ! ان
زبك تطاول حتى وصل أنفك .

في الصباح أزداد ألمي عند البول ، وخوفني القبح الذي يسيل منه
باستمرار . الحشفة صارت أكثر أحمراراً وحساسية . وصفت للصيدلي
أعراضي فأعطاني شفائي في ثلاثة أيام . أول مرة أتقبح ، وأول مرة
أُخفن .

ربيعة جمعوها في حملة تفتيش عن البغایا غير الخاضعات
للكشف الطبي الرسمي . حكموا عليها بشهر . كنزة تسكن فندق
تاھيتي في طريق المسيحيين . بارجة أمريكية في ميناء طنجة . بحارتها

في الحانات، والشوارع، وبيوت الدعاية الإسبانية، والفرنسية، واليهودية. قدت ثلاثة منهم (واحد فليبيوني) من السوق الداخلي إلى ماخور مدام سيمون الجميلة. من يعرف أن يقول : هللو، كمان ديسري يستطيع أن يقود طابوراً منهم.

في قاعة الاستقبال فرنسيات، واسبانيات، وایطالية واحدة. تنانيرهن تكشف عن أفخاذهن الرشيقه. اذا جلست احداهن على مقعد يظهر لون تبّانها (السليب). كواكب أحذيتهن العالية تُبرز مؤخراتهن باغراء. عسل الجمال البشري يتتظر من يتلذذ بعذاقه. وقفنا الى مشرب القاعة الصغير. طلبنا البيرة. تميّست احداهن نحونا ثم اثنان. قالت لي مدام سيمون :

- ساعطيك ثالثين عن كل مائة بسيطة كما هي العادة مع المرشدين. اشرب بيرتك وعد بعد أن يخرجوا أو فَعُدْ غدا.

أعطاني كل واحد منهم دولارين. لم يكن يمكننا مراقبة ما يستهلكون، لكن كل صاحبة ماخور تدفع نسبة معقولة حتى للذين ليسوا رسميين لتكسب ثقتهم.

قبيل منتصف الليل خرجت من خمارة الميناء. الفلبيوني سكران يقتاده شرطيان عسكريان بحاران. يسير بينهما حافي القدمين. لباسه البحري الأبيض لم يعد جميلا. لا بد أنهم أفرغوا له جيوبه وتعارك. كان أرزن من رفيقيه عندما قدمتهم عند مدام سيمون. أعطتني بنت الزانية مائتي بسيطة وقالت :

- لم يستهلكوا كثيرا.

ثمن الدخلة مع احداهن عندها مائة بسيطة. قلمي لم يعد يسيل. قد لا تقبلني أية واحدة. عند ماري كارمن أفضل. دخولي مع احداهن عندها شبه أكيد. لقد رأيت من هم في مستوى يدخلون. خمسون بسيطة للدخلة.

فتياتها اسبانيات. انهن أقل ترفاً مع المغاربة من فتيات مدام

سيمون. أعرف كريستوبالينا. كنت أبيع لها السجائر المهرية في السنة الماضية. وقفت إلى المشربة الصغيرة، ماري كارمن تتحدث مع زيون. طلبت منها نبيذ خيريث الأبيض. كريستوبالينا جالسة. تدخن وتتصفح مجلة مصورة. دعوتها إلى كأس. ابتسمت بمرح وانتصبت أمامي نافخة تنهيدة خفيفة. تناولت سانزانو، رنت كأسانا. أشعلت لها سيجارة وقالت:

- لم أعد أراك في السوق الداخلي. ألم تعد تبيع السجائر؟

- ابني أدرس الآن في العرائش.

- هذا أحسن لك.

حملنا كأسين آخرين ملاوين ودخلنا غرفتها. وضعت حبة بنسجية قائمة في طست. حللتها بأصبعها في الماء الدافئ واغسلت. أعطتني صابونة معطرة لأفعل مثلها. صبت ماء الكولونيا على قطعتين من القطن. أعطتني أحدهما ومسحنا جسمينا من الأمام. جالسين على حافة الفراش عاريين رشفنا من كأسينا ومن فميما ودخنا وتكلمنا قليلاً عن البؤس الذي بدأ يغزو المدينة. ولدت في طنجة. فيما بعد سأعرف أن أمها أيضاً احترفت نفس مهنتها، وأختها أيضاً مارستها فترة قبل أن تتزوج بشاب مغربي مهرب. تشابكنا فتصاعدت رائحة ابطيننا القوية ممزوجة بالعطر. صدرها ملآن ووجهي صغير في مقلتيها.

١١

البعد المأمول

قبل أن أدق على الباب قالت لي الطفلة الجارة، قبالة الهربي،
لاعبة القفز على المربعات المختلطة على الأرض بالطباشير الأبيض
مع رفيقتها :

- صديقك طردوه من الهربي.

ثم استمرت في لعبتها وهي تقول بالاسبانية وورفيقتها تجبيها :

- PISO? - أدوس؟

NO - لا

PISO? -

NO -

بعد أن قطعت شوط المربعات سألتها :

- طردوه، كيف ذلك؟

- جاء اثنان من البوليس فأخذاه هو والفتاة السوداء وصاحتها.

حجزت غرفة في فندق مالقة وخرجت أتفقد الشوارع. الخامسة مساء. وجدت المختار حزيناً في منزله. رحب بي والدته. قدمت لي الشاي، وخبيزاً أسود، وعسلاً وسمنا. بعد لحظة أبدى المختار رغبة ملحة في خروجنا. شيء ما يحدث. حزنه هذه المرة أطغى مما تعودت أن أراه فيه. في مقهى سترا ال قال :

- البتول خطبها استاذ.

- النساء يفضلن الزواج على الحب

- ما فائدة زواج بدون حب؟

- انها مشيئه النساء.

- اللعنة اذن على الحب.

- اللعنة أيضاً على الزواج، لأن أوله نعم وأخره لا.

أخبرتني سرية سلوى أن فاطمة سافرت إلى أمبانيا لتعمل هناك. سلوى جاء جدها وأخذها معه لتقضى عطلتها في البايدية. فكرت : لا بد أن فاطمة ذهبت لتعمل في حانة أو مرفeson. حميد حبسوه يومين في مخفر الشرطة ثم سُرّح وذهب إلى أصيلة. سعيدة وعائشة سافرتا إلى مدينة أخرى. أحسست بوحشة قاسية. إن العالم الصغير الذي كونته خارج المعهد قد تزلزل. التفاحة فضمت، والبرتقالة انشطرت، ورحيق الثوت سال على الشفتين، وبُعدَ حلو بدأ يكُونُ الحنين .

12

الجمال المستعاد

عندما تُبحِثُ في مبارأة الدخول إلى مدرسة المعلمين أحسست كأنني ولدت من جديد. اعتقدت أنني بنيت جداراً منيعاً بيني وبين الاحتقار الاجتماعي، والجهل، والبؤس. يا للغباء! إن التحس كان أقوى من فرحتي. أبي لم يستقبل نجاحي إلا بقدر ما ساعطيه له من راتبي الشهري. بدأ يساوم أكلني، ومبيني في الكوخ القصديرى، المترفة فيه الفئران، قبل أن أقبض حوالتي الأولى من منحة التدريب في مدرسة المعلمين. انه يبعد المال أكثر مما يبعد الله، لكنه لا يعمل شيئاً ليكسبه إنما يتظر الآخرين أن يكسبوه له. استيقظ كل ما تَجَمَّع في الماضي من كراهية له الراقدة. لقد عاد الإرهاب يبتنا. لا أعرف سبب تصفية حسابه معى. انه يلاحقني في الحضور والغياب. يخيل لي دائماً أن له وجه مجرم، وجهاً من خرج حدثاً من السجن عانى فيه الأشغال الشاقة وعاقبة العصيـان . الى

مستى سأظل أكرس بغضبي له ؟

انها عطلة صيف عام متين. رفقائي القدماء ، في تطوان ، باعدَ
الزمن بيتنا. لم يبق من بعضهم الا الاسم. قد تعرف وقد لا تتعرف
على بعضنا البعض اذا ما تراءينا. لم يبق منهم سوى التفسيتي.
تجارته مزدهرة. يكاد يحتكر عربات المثلجات الثابتة والمتجولة وثلاثة
متاجر أخرى. نادراً ما التقى ولا أبحث عنه. لقد وضعنا من نفس
ثدي البؤس. ربما يريد أن ينسليخ تماماً عن جلده. انه غارقاليوم في
الفجور ، والعلاقات مع التجار ، وأصحاب السلطة المتباھين
بناصبهم حديثا. ما زلنا نشرب أنساخ الاستقلال. مرة أخذني معه
إلى مبنى فيلا روسا VILLA ROSA في طريق مرتيل. لم أكن أتصور
تبديره ذاك . يريق زجاجات الشمبانيا على أقدام البغايا الإسبانيات.
صرخات ابتهاج وهتافات : عاشت أمك يا محمد !

شربت ليلاً ثي وحدي ، على حسابه ، حتى مطلع الصباح. لم
أنتبه لاختفائهما. ماشيأ عدت الى المدينة. قلت لنفسي ، حتى لا أකدر ما
تبقي من نشوة السهرة : انه السكر. لا عليه ولا عليّ. أنا أيضاً تملّ،
وبحثاً عن سيجارة في جيبي وجدت أوراقاً منكمشة. بعض مات من
البسيطات. لا شك دستها لي في جيبي دون أنأشعر أو أعطانيها
ونسيت : ثغرة سوداء.

أقيع ، في أحد مقاهي الفدان ، لأدخن الكيف مع الزبائن مجانا.
العب أيضاً الورق بدون رهان. أمري غالباً ما تعطيني ثمن علبة سجائر
وكأس شاي. أحياناً يبقى المبلغ عندما يدفع عني زبون يستلطف
حديثي معه. أتردد على المكتبة الانجليزية. أقرأ حتى تقول. عرضت
مرة خدمتي كمرشد سياحي على زوجين انجلزيين كهلين فرافقهما
صحبتي. كنت أعرف ما يكفي من الكلمات الانجليزية لإرشادهما.
خرائطة المدينة القديمة ما زالت ماثلة في ذاكرتي. أخذنا لي صوراً مع
كليهما وأعطياني مائة بسيطة. كفاني المبلغ أياماً. انه جاهل مثلني.

صعلوك. كيف درس؟ لا بد أنهم أخطأوا في المواجهة." هكذا يقول عني أبي للجيران، ولرفاقه معطوي حرب فرانكون في ساحة الفدان، والمتبطلين أينما كانوا. ان شراسته معي لا تنتهي. قد تلاحقني حتى بعد موته. اذا احتجت أمري يضر بها ويلعنها كعادته القديمة معها ومعنا.

كان بعضهم يوافقه على ما يقول، لأن له أو لادا يتغذون بالرذيلة فلماذا لا أكون أنا واحدا منهم ونحن كلنا في الوحل! لكن هناك استثناءات. أوقفني كهل في الشارع :

- هل أنت ابن حدو علال الشكري؟

- نعم.

- هل صحيح ستصبح مدرسا؟

- نعم.

- أعانك الله. الناس يتمنون أن يكون لهم ابن مثلك وأبوك يستجهلك، ويستهزئ بك. ان أباك أحمق.

- أعرف ذلك. لقد ولد ليخذد على الجميع. لا يحب حتى نفسه.

- الله يسترنا.

أستعيد الحنين الى ملاعب طفولتي في متأهات الدروب، والأحياء، والضواحي : أيام الزعارة والفتوة، حومة تهجم على حومة (حي)، سرقة بساتين الفواكه، في ضفة الوادي عرايا نتبارى في الاستمناء : ها أنا قذفت الأول، وأنا بعده... زرت حي "عين الخباز" ، ومسكتنا القديم في غرسة بنيناس. بالحجارة والهراوات كنا نتضارب. احتفالنا بغيث الريبع وشمسه والسنونو . نرقص ونصبح ديك لا أراه يصيح من مكان قريب . حزام فاطمة الزهراء (قوس قزح)، نركب الحمير، نتعلق بمؤخرات الشاحنات وهي تقلع . آثار حريق السياج ما زالت بقاياها في الأوتاد الخشبية القائمة والطاوحة . شجرةتين ما زالت مخضرة، شامخة . الأعشاب المتسلقة تشعبت

فيها، متشابكة، فغطت بعضاً من جمالها . الجمال المستعاد دائماً أجمل . الانبهار لا يكفي في جميع الأعمار .

أكتب بعض الفصول، من هذه السيرة الذاتية، عام تسعين . في صيف السنة الماضية زارني الصديق المستشرق الياباني نوتاهارا، صحبة زوجته شوكو، في طنجة . كان يترجم الخبز الحافي إلى اليابانية . أخجز ثلاثين صفحة وتوقف .

"فكرت أنه اذا عاينت الأماكن التي تجري فيها أحداث الكتاب فستكون الترجمة أسهل، وأدق، وأوضح ... " هكذا قال . بدأنا من طوان لنعود إلى طنجة . الصهريج كان أول ما شاهدنا . أخذ له صوراً عديدة من جميع جوانبه . عندما انتهى قال مبتسمـاً :
- في كتابك تصف هذا الصهريج، وما حوله، بكثير من الجمال، مع أنه ليس كذلك، ولا يدل على أنه كان جميلاً .
قلت له بنفس الملاطفة :

-هذه هي مهمة الفن : أن **نجعل** الحياة حتى في أقبح صورها . إن هذا الصهريج انطبع في ذهن طفولتي جميلاً فلا بدّ لي من أن أستعيده بنفس الانطباع حتى ولو كان بركة من الوحل . ثم انتي كنت بعيداً عنه زمنياً .

الظهيرة صاعدة . كنت واقفاً على حافة الصهريج أتأمل البيت الذي سكناه في أوائل الأربعينات . بيت المؤس الجميل والخلافات اليومية بين أبيي . انه زاه اليوم بطلائه الأبيض، وبابه الجديد . عندما سكناه كان طلاوه مكسوطاً، كالح للون، غير متماسك ، أعيد ترقيعه عدة مرات بالواح مختلفة أقدم منه . خرجت امرأة بدأت تشيخ . صدرها ضخم ، متهدل ، لكن وجهها صبور . وجه قريري . بانت خلفها شابة حولها طفلان صغيران حافيان .
-كنا نسكن هنا من قبل .
-ابن من أنت ؟

- ابن ميمونة .

- سكنا بعدكم هنا . أعرف أمك . لم أرها من زمان . أين تسكنون اليوم ؟

- في سيدني طلحة : باريسان أنطونيو BARIO SAN

ANTONIO

- كيف حالها المسكينة ؟

- لا يأس .

- سأزورها إن شاء الله . بلغ لها سلامي .

- مبلغ .

لم يكن عندي ما أعطيه للطفلين من نقود صغيرة ، ولا ما أضيفه للمرأة . اعتذرت شاكرا وانسحبت . مشيت في طريق التخييل مستعبدا ذكرياتي بمزيج من الفرح والحزن عن هذا الحبي . معهد البيلار ما زال شامخا . لم أكن أعرف ما أفلعه بوقتي الفائض بعد القراءة . لو كنت في طبقة لما أحسست بهذا الفراع الممل . هناك أستطيع أن أوكرد من أكثر الأيام كآبة وعززاً بعض المتع . العزلة هناك حرة لها مذاق التوت البري ، وهنا مفروضة ولها مذاق الحنظل . تحولت حول المكان الذي كان فيه كباريه " لا بيركولا " : الطانجو وكارلوس غاردل ، كونشا بكيير ، الفلامينكو ، لاس كوبلاس (أغان شعبية) ، والرقص الغجري . منزل الإيطالية الشابة التي كنت أنتقي من قمامتها قدام بابها أعقاب سجائتها المصووغة بأحمر الشفاه القاني . أدخلتها بلدة جنسية . فاجأتني يوماً أنبش زيلها بحثاً عن الأعقاب فلم تعد ترميها . مررت على رياض العشاق . لم يكن عندي ثمن شرب شاي في مقهى المغاربة . الهدادي الجويوني يعني : تحت الياسمينة في الليل . تجارة أمي تكسد في أواسط الشهر . لا يمكن لها ، أحياناً ، أن تعطي لي شيئاً . نسيم معطر يلطف المزاج وسط هذا الأخضرار الزاهي الذي يختال فيه العشاق المبتدئون . لم تعد في المخوض سوى سمكates صغيرة ملونة . الكحوليون الذين يحتمون

هنا بالليل اصطادوا الأسماك كلها بالقفنة وأكلوها لـماذة (كمية، طايبا) مشوية . هكذا قيل . البط أختفى تماما من الحديقة . كان هناك قرد يشاكسه الأطفال في قفصه، ومصور يعرض على العشاق، بشاشة ، أن يلتقط لهم صورا . العشق المغربي ، المبهور ببطولة الحرية ، بدأ يخرج من المخابئ ، ووراء الشبابيك الى الشوارع ، ودور السينما ، وتحت الأشجار ، في أزياء أوروبية ، ورباطات العنق .

تناسق الألوان غير منسجم ، والخطو بالحذاء ذي الكعب العالي متعرّث . تيه ودلال ساذجان . عمر العشق لم يتحضر بعد . أتردد على الترانيم ، والسوق الفوقي ، والغرسة الكبيرة ، والملاح (حي اليهود) أكثر من مرة في اليوم . الحركة والعمل اليدوي وضجيج الباعة والصناع ، في هذه الأحياء ، يخفف من توتر عطالتي وسامي ، لكن المفزع هو لو أني أعود يوما الى احتراف أحد هذه الأعمال . يكفيني ما عانيته فيها من مهانة وأنا صبي متعلّم .

كنا ننام ، إخوتي وأنا ، في حجرة ، وفي الأخرى أبواي . لم نكن نتكلّم ، ولكي أتخاší رؤيته أجيء في حوالي منتصف الليل . عندما يسمعني داخلا يبدأ همماته اللاعنة . غالبا ما أكون أنا موضوعها . أكيد أن أمي تكون نائمة . لا أسمع أي حوار بينهما ، لكنه يخاطبها كأنها تسمعه . قد تكون يُقْظى . وعندما يتعب يشتمنها ، وما ولدته من خنازير ثم ينام وهو يدمدم . كلانا عنيد في ضلاله : هو لا يرضى أن أكون ابنه ، ولا أنا أرضى أن يكون أبي . يتعاظم تناحسنا كل يوم . ينقصنا ولو زخرف الخيال . يقينا أنه لم يحلم أبدا بمحبة أحد حتى نفسه ، وكذلك الحيوانات ، والأشياء ، اذا لم تكن نافعة له .

بداية شتمبر . ألمني أن يمر هذا الصيف العفن بسرعة لأسقط في أحضان الخريف ، ثم الشتاء ، حيث يكون للدفء عمق أحلام اليقظة عن المستعاد الجميل ... ! نادرا ما أعود الى كوخ اللعنات والنحس

اليومي في الأصيل مثل اليوم . جائع ومتعب . أخي عبد العزيز يبيع البزر ، والحلوى لأطفال الحي فوق صندوق يتخيله دكانا مثل بقال . إن عقلية التاجر ولدت معه . يتعمد أن يعد أمامنا نقوده الصغيرة عدة مرات . يزهو بما يربح ويتحدى أختينا أن تكسبا شيئاً مثله . لو أنه يستطيع لتحدى حتى أبانا العاطل . وجدت حبيبة، مصفية في تأمل ، تحكي معها أمي وأختي أرحيمو . أختي مليكة غافية على حجر أمي ملامسة رأسها . كان هذا التكاشف الحميم استمراً لصداقة أمي مع أم حبيبة . أم حبيبة هي أيضاً عانت كثيراً من قسوة زوجها الفاسق ، لكنها كانت تقاومه حتى هزمها فزوج وحيدته حبيبة كهلاً تاجراً في الماشية (صديق له) وهي لم ت تعد السابعة عشرة . طلقها بعد سنة وأشهر لأنها لم تنجذب له . أبوها وعمتها شرسان معها ولا أحد تحتمي به . أدخلوها إلى مستشفى الأمراض العقلية لأنها تكسر أشياء المنزل ، وتترقب ثيابها وأي ثوب تجده أمامها . في المستشفى ترقص ببهوس صارخة حتى يغمى عليها أو يحقنوها . بعد أشهر خرجت لتعيش حياتها العادية . في عطلة صيف تصاحبت مع شاب في شاطئ مرتيل يصطاف مع أسرته . تزوجها في تطوان وذهبت لتعيش معه في الرباط . كان يعمل في مراب . أنجبها أربعة أطفال ، لكنه كان يقسّ عليها بالضرب حتى الأدمة فهو جره تاركة له الأطفال . طلقها فذهبت إلى سبتة حاملة معها جنون صدمتها من جديد . في سبتة أيضاً كانت ترقص مهوسه وتعربد سكرانة في الأحياء الشعبية مغازلة الرجال ، ساخرة من النساء . كانوا يسمونها الحمقاء الجميلة . لم يكن لها مأوى . تنام حيثما يستضيفها متشرد في أحد أكواخ البرينسيبي . أحياناً تصنع من الزهور إكليلاً تضعه على رأسها ساحبة خلفها أربعة صفائح تقعق معقودة كل واحدة منها على حدة في حبل واحد . الصفائح الأربع ترمز بها إلى أولادها الذين تركتهم في الرباط مع زوجها الهمجي

كما تقول . عندما تهدأ لفترة تررق لكل من يعرفها ومن لا يعرفها فيجددون لها ملابسها ويطعمونها .

تفاهمت عزيزاتها فرحلوا إلى تطوان لتدخل مستشفى الأمراض العصبية لكي تفجر طقوس رقصها حتى يغمى عليها وتحقن كالعادة . خرجت لتعيش حياة رصينة ناسية كل شيء . كانت تتدارب أمرها فتشتري أزهى الملابس تصابي بها في شوارع المدينة . أبوها يملك متاجر ودورا . في أحدهاها تقيم هي في الطابق الأرضي وفوقها عمتها الأرملة دون أولاد . خصص لها معاشا شهريا تعيشان به ، بتقتير ، في انتظار ما سيحدث للمنكودتين كما يقول . تزوجت حبيبة للمرة الثالثة بعد ما ظلت سنوات وهي تخبط الشوارع . وفي الشهر السابع من هذا الزواج ماتت بالكوليرا وزوجها يتضرر منها طفلهما الأول . أستلطف حضورها وهي تحكي لأمي عن همومها مع زوجها وأولادها في الرباط . ذهبت أرحيمو عند صديقتها الخدباء فطيبة جارتنا ، وخرجت أمي إلى المطبخ في حوش الكوخ . مليكة نائمة . دعتني حبيبة للعشاء معها فتلاشى تعبي . تسكن في حي مالقة . دست لي في يدي ألف فرنك مدعوكه : - تصرف . إشر شيئا للشرب . سأخرج بعد قليل . انتظريني قدام سينما الحبي .

أمي تطبخ . لم تكن تعترض على متى أدخل أو أخرج . أنام في الكوخ أولاً أنام ، إنها عادة قديمة بيننا . رأتني أخرج وهي تضع شيئا في الطنجرة .

- سأخرج .

هزت لي رأسها ولم تقل شيئا . ليس من عادتها أن تطيل النظر إلى الأشخاص . نظرتها مبهمة فيها حزن دائم . إنها تحتفي بي أكثر من أخيتي ، ربما لأنني بكرها ، ولأنني نجوت من المagueبة بمعجزة ، ولأنني ولدت في الريف وأتكلم معها لغة العائلة ، وربما لأنني أعيش

بعيداً عنها . أخوتي الذين ولدوا في طنجة وتطوان لا يتكلمونها وإن كانوا يفهمون منها القليل . لا يريدون أن يتعلموها . أمي تكلمهم بالريفية فيردون عليها بالدارجة . يحاولون، ما أمكن، اخفاء أصلهم . يعتقدون أن الريفين مختلفون . أمثالهم كثيرون عرفتهم في كل مكان : كبار وصغار .

حتى الآن لا أعرفكم كما ! لقد كان يولد لي أخ أو اخت فيموت أو تموت وأنا في طنجة لا أعلم دائمًا . لم أسألها قط حتى وفاتها في 8-6-84.

في باريو مالقة شربت كأسين من النبيذ الأبيض عند دكان خمار إسباني ، وشتريت منه زجاجة . كانت حبيبة قد نعتت لي الدار . بيته بسيط ونظيف . ذكرني بيته فطيمة في العرائش . حجرة امرأة وحيدة للنوم والجلوس ، تجد متعتها في تنظيف وتلميع مفروشاتها التي تستمد منها بعضاً من إفتها مع الحياة . على الحائط صورتها وهي طفلة مع أبيها في باب التوت ، صورة لها في لباس العرس التقليدي ، صورة أمها في إطار كبير ، دميةان فوق خزانة الملابس ، ساعة الجدار الدقاقة وساعة الكوكو ، طاولة ليل تضاء بأباجورة ، وطاولة ذات رخامة فوقها مرآة ، وأدوات الزينة ، وزهرية مزخرفة فيها باقة ورد حمراء محاطة بزهور بيضاء . شربنا وتعشينا طاجينا من السمك ودخننا ثم حكينا عن همومنا . عندما أتعينا الحكي اتفقنا على أن الإنسان لا يعرفحقيقة نفسه ، وحقيقة الآخرين ، إلا في المصائب والكوراث . شعرها الآن أسلنته . كان معقوصاً عندما كانت في كوخنا . صارت أجمل . حركاتها رشيقه ، متناسقة ، صوتها رقيق ، وكلامها بطيء سعيد ، ونظراتها ناعسة . تشرد ، أحياناً ، وأنا أحكى لها عن دراستي في العرائش ، أو حياتي في طنجة . سرني أن تدعوني للنوم عندها . لن أسمع اللعنات الحمقاء التي يتقياها أبي في كوخ الشؤم كل ليلة . أخذت عليّ أن أنام في

فراشها وهي في المطربة (النخت)، لكنني ألحّت أنا أيضاً على النوم في المطربة. نمت بكمال ثيابي . ساد الظلام والصمت . فكّرت في رغائبِي وشهواتِي الماضية . هذه الليلة ليست هي الأفضل بين مثيلاتها ، لكنها أحدها . تقلبت عدة مرات . إنها علامة الأرق كما تعودت . بدأ الشوق يهيجني . منذ أكثر من شهرين لم ألس خلالهما أية ساق أو نهد . لم يدخل رأسي بلذة حقيقة مستطابة ، غير أن الاستمناء له لذته ، ومزاياه : فهو أكثر حرية ، وحال من متاعب العلاقات الدائمة ، وأمراض المحترفات . إنما الأعمال بالنيات . ولكل امرئ مانوي وهو . هل دعوتها لي مجرد احسان؟ رفقة للتنفيس عن الهموم المشتركة ؟ أو هي مشروع رغبة حاضرة أو مستقبلة ؟ قد تكون دعوتها هي الرغبة الصريحة بعينها . لا أدرى ما يخبئه لي جنونها الرائق ! لا أريد أن أكون سبباً لها في رقصات جنونية أخرى ، لكن رغبة افناه جزء مني فيها يُهيجني ويأمرني هوسي بها . يحدث لي مرات في طنجة أن أستيقظ في فندق أو في بيته صديق ولا أعرف من هي التي تنام معه ، أو تغادرني نائماً دون أن أراها ولا أذكر إلا نبضي فيها : يكون السكر وصدفة الليل قد جمعانا ، لكن حبيبة ليست صدفة الليل ولا نحن سكرانان . ساغتصب لطفها معه إذا هي امتنعت . لماذا لا أترك هذه الليلة تملؤنا بصمتها الجليل ، ومتعبها الحميقة ؟

ومثلما يفسد الشوق الأهوج كل شيء جميل نهضت متلصص الخطو واندست بكمال ثيابي معها . كانت تنام في وضع جنبي . شعرها منسدل على وجهها . تراحت متمططة واستقام جسدها ثم انطوت من جديد وصوتها الهامس حالم أو متعب :

-دعني أنم .

-أحبك ،

-كفى من كذب الليل .

غباء . إنها على حق . أَمْثَلُ مهزلتي . الححتُ على تقبيلها ولمسها لكي أتأكد من تمنعها ، لكنها مصرة على امتناعها دون أن تأتي بحركة نافرة . كانت واثقة من نفسها . لقد أخطأت قدمي وطأها . فجأة أحسست بجسمها يتفضض ويتصلب وسائل دافئ يبلل سروالي . أتبول وهي يقظى ؟ قد يكون لها جنون البول مثلما لها جنون الرقص . في ماخور طنجة نمت مع ليلى البوالة فلم تقبل أما حبيبة فقد بالت . انسدللت قبل أن أثير فيها نوعا آخر من الجنون أو جنونها بأجمعه . خلعت سروالي وانكفت على وجهي فوق مضجعي . إنها تبكي . ربما هي تنطف نفسها من إهانتي لها أو أنها تبكي لكي ترق وتروق أكثر ، لكنني لست مستعدا أن أمثل معها مسرحيتها . هناك نساء لا يلطفن ويرقن إلا عندما يبكين ، لكن ليس لدي صبر جميل لمشاهدة هذا الدور . ماذا بولها ؟ أهو الخوف أو التشنج العصبي القاهر ؟ مع ذلك فإن حبيبة ليست هلاما أو طحليبا ، أو بطيخة صفراء عفنة مطروحة في عز الشمس كما قال يوسف ، كاره النساء ، في مستشفى الأمراض العقلية . لقد فكرت أن الفاكهة الإنسانية إما أن تُقطف في أوانها أو تتعرّف ، لكنني مخطيء . إن القطايف لم يحن بعد .

13

طائرة السعادة

اشترت لي أمي سترة وقميصين وبنطالين لبدء الدراسة في مدرسة المعلمين . أخبرتها باقامتي عند حبيبة فقالت :
- أنت تعرف ما يليق بك .

بدأ يسكنني شيطان الأدب فصرت أهتم بقراءة الكتب الأدبية أكثر من اهتمامي بدروس علم النفس التربوي ، والتشريع المدرسي . النصوص التي أغيرها اهتمامي هي اللغة العربية . أستاذها مقتدر فيها . بعد الشرح قد يعرب لنا النص بكامله المكتوب على السبورة . انه جدّ مؤمن وجدّ ماجن : الدنيا في يده اليسرى ، والآخرة في يده اليمنى . يوم الجمعة ، في أحد المساجد الصغيرة ، يُؤمّ الناس ويخطب فيهم . يعرب ، ليلاً ، في الرينكون أو في سبتة . صحبته مرات في سيارته القديمة . يضع فخاً تحت المقعد الخلفي . يتوهّم أن فاراً يسكن سيارته . إنه ذكي لأنّه لا يأكل الطعام كله حتى لا يقع ،

هكذا يقول .

ضيّبطني أستاذ التربية وعلم النفس أقرأ : «البؤساء» فآخر جندي صارخا : «هذه قاعة الدرس وليس مكتبة .» صرت أتردد على مقهى كونتىنتال . مريح وأغلب رواده أنيقون . تبدو على وجوههم آثار النعمة . تسعه وأربعين ألف فرنك ، التي اتقاضاها في منحة التدريب ، كانت مبلغاً مهماً عام ستين . أعطي جزءاً منها لأمي وأحتفظ بالباقي . أوزع وقتني بين القراءة بالعربية والاسبانية والعربدة في الحانات . حانة ريبيرتيتو ، المزينة جدرانها برسوس الشيران ، كانت أزهاها . أستمتع بالأغاني التي أسمعها من الحاكي الآلي في كونتىنتال . ثلات أغان لا أملّ من تكرار سماعها : الصبحيات لـ نات كينج كول ، الساعة للوشوغاتيكـا LUCHO بـ بيسامي موشو BESAME MUCHO لأنطونيو ماتشـين GATICA سـألت شاباً جالساً جنبي عن شخص أنيق ANTONIO MACHIN . يحترمه رواد المقهى ، وت تكون حوله ثلاثة أنيقة ومنعمة وجوهها مثله :

- من هو ذلك الشخص ؟

- ألا تعرفه ؟ انه الأديب محمد الصباغ .

- ماذا يكتب ؟

- الشعر المشور .

اشترت كتبـه : اللهاث الجريح ، شلال الأسود ، شجرة النار وأنا والقمر . (الأخيران مترجمان الى الإسبانية) كتبـ صغيرة الحجم . قرأتـها في يومين . قلت لنفسي : اذا كان الناس يحترمون من يكتب مثل هذه الأشياء فأنا أستطيع أن أكتب مثلها أو أفضل منها . الكتابة اذن امتياز . كنت أعتقد أن الأديب لا يُرى في الأماكن العمومية ويتحدث الى الناس كما يفعل محمد الصباغ في هذا المقهى . ان الأديب إما هو خفيّ وإما هو ميت . كتبت شيئاً في ثلاثة صفحات . أسميت هذه المـريشـات اللـقيـطة " حـديـقةـ العـار " .

صرت أترصد محمد الصباغ حتى رأيته يوما جالسا وحيدا
يشرب قهوته المضغوطة . اقتربت منه باضطراب .
- الاستاذ محمد الصباغ ؟

- نعم .

- لقد قرأت كتابك باعجاب كبير . أنا أيضا أريد أن أكتب . هذا
أول ما كتبته . أرجو أن تصححه لي وتعطيني رأيك فيه .
وضع الصفحات بلباقة في جيده . حبيته واختفيت من المقهي
حتى لا أحربه وأخرج نفسي .

في الظهر يكون المقهي شبه خال . ومن عادته أن يتناول قهوته
قبل أن يذهب إلى عمله في المكتبة العامة . أعاد لي الصفحات في
الغد فائلا :

-لغتك لا بأس بها . استمر في الكتابة بانضباط واقتراكاثيرا .
شربت معه القهوة السادمة . ذكرت له شذرات عن حياتي في
طنجة ، ودراستي في العرائش ، وتدربي في مدرسة المعلمين . صار
يوجبني في قراءتي الشعرية بالعربية والاسبانية : غوستافو أدولفو
بيكر، GUSTAVO ADOLFO BECQUER الأخوان أنطونيو ومانويل
متشادو ، MACHADO ألكسندر فيثنيتس ALEXANDRE VI-
CESAR (كان يتراسل معه) بابلو نيرودا ، ثيسار ثايخو CENTES
GABRIELA MISTRAL ، VALLEJO البرتي ... واكتشفت بنفسي عذوبة شعرية رومانسية عند الشاعرات
rossaliadi كاسترو (مترجمة من الجلدية (إل غايجو) إلى
الاسبانية ، إيملي ديكتسون (مترجمة إلى الإسبانية) ميرادل المار ، سو
سانا مارش ، خوانا ايبار بورو وألفونسينا سطورني . قلما كنت
أقتحم ثلثة الأدب . كان بعضهم قد ألف أكثر من كتاب ، وأنا كنت
أحاول كتابة جملة جميلة . قصص من المغرب ، لأحمد عبد السلام
البقالي ، كانت أول ما قرأته لكاتب مغربي . نشرت لي جريدة العلم

قطعة نثرية "جدول حبي" مع صورة بالبايون . دُوَّخني الفرح ومسكرت احتفالاً بموهبتى الأدبية الدفينة . اشتريت أعداداً كثيرة وزعتها على رفقائي المتدربين لأشعرهم بأهميتى بينهم . فكرت : ابن الكوخ والمزبلة البشرية يكتب أدباً وينشر . لكي أزكي أهمية نفسى المتبرجحة اشتريت سترة وبنطالاً فاخرين ، وربطات الفراشة ، وسلسلة يد زائفة مذهبة . قلkenyi الزهو والرفة فتخليتُ عن المقاهي الشعبية في الفدان ، والترانكات ، وباريyo مالقة وصرت أرتاد قاعة فندق ناسيونال ، ومرقص المارفيل ليلاً . صار عندي مفهوى كونتىنتال من الدرجة الثانية ، وحانة لا بارا LA PARRA من الدرجة الثالثة . أحلق وجهي مرة أو مرتين في اليوم الى حد البرنسة . أتعطر حتى صارت أحمل في جيبي قارورة صغيرة من عطر الجيب . ابن البراءة وعشير الفتران يتأنق ، يتحضر ، يتطور ، يخرج من جلد خشن ليدخل في جلد ناعم . والالهام...؟ آه! لا بد من ملهمة ، ابن الوحل يستلهم

تابعت يوماً فتاة سمراء . عرفت سكناها وأصلها . صارت أمير ظلّها كلما صادقتها أو ترصدتها قدام منزلها أو قدام منزل خالتها . صديقة لابنة زعيم مغربي . لقد تعلقت حيث ينشد رأسى . حليمة ، جارة حببية وصديقة اختي ارحيمو ، أمية ، لكنها سمراء وجميلة . يمكن لها أن توحى لي بقصيدة غجرية ، لكن طبعها الهدائى قد لا يوحى لي بشيء مُهم . أعنف الطبع هو ما تعودت عليه .

أعطت لي حببية مفتاح بيتها . أدخل وأخرج متى أشاء . لا تبيت ، أحياناً ، في بيتها . ذلك لون زهرة أخرى . أكثر من مرة رأيتها في سيارة أو ماشية صحبة من؟ لا أدرى من في شوارع النزهة الجديدة! تنحرف...؟ مشغلها . غابت ولم تظهر إلا في اليوم الثالث : آثار كدمة زرقاء على عينها اليسرى . ضربة قوية . هناك من يستعبدها . أصبحت اختي ارحيمو بدرن رنو . أبي وأخي عبد

العزيز أيضا يسعلان بحدة . وباء شامل في أسرتنا . لم تسلم سوى ملية و أنا . أمي شفيت لكنها خاضعة للرقابة الطبية الدورية . أبي وحده ظل يُعالج حراً .

غابت حبيبة يومين . انتقلتُ إلى فندق "الجروهرة السوداء" العائلي . فندق صغير . يديره أخوان إسبانيان : روساريو وكريون . عشرون ألف فرنك في الشهر : غرفة صغيرة وثلاثوجبات . لا شك أن حبيبة تعيش قصة غرامية شفقة .

زرت أرجيمو وعبد العزيز في المستشفى . انفجراباكين . امرأة ماتت في حجرة أرجيمو . لم تقنع بعد أن من يمرض قد لا يموت . أمنا معجزة .

صحيبت محمد الصباغ إلى منزله في المدينة القديمة . حجرة انسان متعبد لفنه . عنب ، تفاح ، واجاص في صينية . ضياء شاحب يعمق صمتاً شاعرياً . شوبان : ليليات مايوركا وقراءة رسائل ميخائيل نعيمة . خرجتُ من عنده متمنياً أن يكون عندي بيت متوحد مثله . يصحح لي كتاباتي بكلمات منحوته ، جد شفافة ، لكنه من طينة وأنا من طينة . إنه لم يقتت من زيل المرفهين ، ولم يُقْمِل وعرقوباه مشقوقان ، داميان . أنا لا أعرف كيف أكتب عن حليب العصافير ، واللمس الخاضن للجمال الملائكي ، وعنacid الندى ، وسلامات الأسود ، والعندلات . أنا لا أعرف كيف أكتب وفي ذهني مكتسة من بلور . المكتسة احتاج ولنست زينة .

زرت حبيبة لأعطيها مفتاح بيتها . شاحبة ، والهة وبائسة . اختنق صوتها وانبع :

- لماذا ذهبت ؟ لماذا أزعجك ؟

يبدو عليها أنها بكت .

- لا أريد أن أزعجك .

- لا تزعجي في شيء .

على الطيفور (مائدة مستديرة) قنستا بيرة فارغتان، وعلبة سجائر شقراء . هم جديد غزاهما . منها رة . حتى عمتها لا تراها . تعتبرها فاجرة: عمتها التي ينكحها حارس مرأب الحبي . لم تكن لحبية صديقات . اقتربت عليها أن أجلب شيئاً نشربه معاً . تهلهل وجهها فرحاً . أريد لزاجها أن يررق . ذكرني حزنها بفطيمة في العرائش عندما تمرض ابنتها سلوى . سلوى ويوم الشتاء في الحديقة الخالية . سلوى التي قد لا أراها أبداً . لم أتركها تدخل يدها في حقيبتها الصغيرة . تبرعم طيف بسمة ثم انفجر البرعم فانجمل وجهها فإذا بها أصبعي . سنتعشى معاً . لحم الغنم بالخرسوف والجلبابة . تفوح برد منعش يصفع ورذاذ . في دكان الإسباني طلبت كأس نبيذ خيريت . إسبانيان عجوزان يتحدثان عن فن مصارعة الثيران . ترددَ اليوم في التجارة . يتحسران على خوسي بارانداس، مرسيلال لالاندا (شيكيولو) الشجاع، وفرانسيسكو بيرالطا، خوسيليو الغابو، ومنويل بينفينيدا ميخاس، وخوان لويس دي لا روسا (فاشيستي قتل في برشلونة في بداية الحرب الأهلية الإسبانية) ومانوليطي العظيم . حين يختلفان ويحتدّ نقاشهما يحكم بينهما الدكاني ملطفاً هياجهما . شربت كأسِي الثانية واشتريت زجاجة نبيذ أبيض . فكرت في حبيبة وأنا عائد : من الأفضل لها ألا تحضن على بيضة حبّ من جديد حتى لا تعود إلى رقصها الجنوني في المستشفى أو في شوارع سبتة ، لكنها ربما تجد ، بين فترة وأخرى ، نشوتها ، وتصرifa مريح القلقها في هذا التشدّد الأهوج . طلاقها الأخير أفقدها الكثير من نزاحتها وهي لم تبلغ بعد الخامسة والعشرين . أطفالها الأربع ولدتهم مثل أرنية : توأمان والاثنان الآخران الواحد تلو الآخر . ولكي تدبّر أشغال المنزل كانت تربطهم من أرجلهم إلى قوائم السرير ، والتخت ، والمنضدة ، متباعدين حتى لا يتلامسوا ، ويتخاطفوا قطع البسكويت . لم تعش قط حياة جميلة . لحظات

فرح قد تسرقها . حظها سيء منذ باكر عمرها .
رائحة طبخ لذيدة تسربت من المطبخ فعمت الحجرة . انبعثت
فيها حيوية مرحة . كلماتها صارت تمسح غبار كابتها على وجهها .
نلاطف بالأنفاس والبسمات فإذا بها تشرق كما لو أنها في حفل
زاه . مدحت مهارتها في الطبخ : اللحم بالخرشوف والجلبانة أكلتها
المشهدة . تسميتها الوزير الأول .

رقت ملامحها . قالت :

- لم أتعثر بعد على من يفهمني مثلك .

- لا ينبغي لنا أن نشق كثيرا في السعادة . إنها آتية هاربة ، منفلتة
كلما أردنا القبض عليها . قد تكون مثل عصفور جميل يحط على
حافة شرفتنا . لا نكاد نقترب منه حتى يطير . هل تعتقدين أن
العصافير سيحط على الكتف ويفغى لك أولي كما نتخيل ؟

- أفهم .

- هذه هي السعادة اذن : إنها لا تحط على الكتف وتغرد . إنها
تظل على حافة الشرفة .

وافتني ونسمة الانشراح تستريحها .

- أنتَ على حق .

كنت أيضاً أعزى نفسي لأنّ حياتي ليست أجمل من حياتها .

١٤

الحالون

في ذلك الصباح الطري، النسيمي، خرجت من دار حبيبة وكأني ماش في الهواء، خفيفا مثل ريشة . مازالت نائمة . انغلق الباب آليا . سرالي ما زال مبتلاً قليلا .

طلبت فطورا في مقهى القائد اليزيد . فونوغراف لا ثوا دو صون متفر في ركن . حتى نهاية الأربعينات تركتهم يشغلونه بذراع التدريب . أغاني أم كلثوم، وأسمهان، وعبد الوهاب، وفريد الأطرش كانت هي السائدة . لقد احتفظوا بالفنونغراف شاهدا على تلك الفترة : تحفة ذكرياتهم وثقافتهم . سأنتظر حتى تذهب أمي لتبיע الشياب المستعملة في باب التوت ، وأبى إلى الفدان وفي ذهنه حكايات جديدة ملقة يحكىها عن شجاعته للمتقاعدين أو الهاجرين مثله من حرب فرانكو . كلهم لهم حكاياتهم الكاذبة . لم يكن ، في الواقع ، شجاعا حقيقيا إلا في حربه معنا ، وإن بدأ ينهزم عندما كبرنا . غير

أنه ، بين فترة وأخرى ، يضرب أمنا حتى يدميها أو يُزْرِقَ لها إحدى عينيها أو هما معا . ذات يوم أعياه الضرب فرفع القدر التي يغلي فيها محلول السكر الذي يصنع به العسل لبيعه في سبعة ، لو لا الجيران ، الذين استغاثت بهم ، لأفرغ المحتوى على رأسها . عندما جئت أمسكت مدقّة الهالون وهدته بتهشيم رأسه إن هو عاد إلى جنونه معها . خرج إلى دار جارنا وانخرط في نوبة من البكاء وهو يردد : "المسخوط يهددني بالقتل . يهددني بالهراس . لو خنته وهو صغير لتخلصت منه . " تذكرت كيف انفجر دم أخي عبد القادر عندما لوى له عنقه . تلك كانت آخر مرة يضر بها . لقد اكتفى بشتمها ولعنتا .

ووجدت ارحيمو تسعل محمومة . حين يهدأ ساعالها تهدل مثل حمامنة . عصير البرتقال هو الدواء الذي تركته لها أمي . غسلت سروالي وحلقت وجهي وخرجت . اشتريت حبة حلوي من عبد العزيز وتنيت له يوماً مريحا . قال بمرحه المازح :

- انك أول من أفتح به هذا الصباح . سأرى إن كنت طالع سعد لي في هذا اليوم .

قبل القطعة النقدية الصغيرة ووضعها في جيبه . تبسمنا وانصرفت . قبل انعطافي في الدرج سمعت فطيمية ، جارتنا الخدباء ، تُصَبِّح . حيتها واختفيت . شقية بعاهتها . تجد عزاءها في الروايات الغرامية التي تقرأها في طبعاتها الرخيصة ، وفي رسائل الحب التي تجذب بها عشاق صديقاتها الأميات العاشقات . إنها كاتبة عمومية للكبار والصغار في حينا . أدركت أن جمال الحلم ، في اليقظة والنام ، هو كل طموح وثروة هذه الأكواخ . إن الفقراء هم الحالون الحقيقيون . يحلمون ، وهم في قواعدهم ، بالاتساع ، والعمل المثري ، واللادب ، والخلفات الصالحة حتى يغمى عليهم رقصاء وغناء . الكابوس أخف في وطأته عليهم بثقله الملازم للأسياد

والأغنياء : انهم يُكَبِّسُونَ (من الكابوس) أكثر مما هم يحلمون .

لست دارياً لماذا أشعر بفرح غامر هذا الصباح رغم ما حدث لي مع حبيبة . قرأت ، في المكتبة الانجليزية ، فصولاً من رواية جين إير ثم ذهبت إلى مقهى الفدان . صاحبت أحدهم في لعب الورق ضد اثنين . الرهان على الشاي . صاحبى هو الذي سيدفع عنى إذا خسرنا . ربنا وخرسنا ثم ربنا . عندما داخ رأسى باللعبة والكيف ذهبت إلى مقهى أو ماينو (بالريفية : أخي) في الترانكات . لم أدخله منذ عودتي من وهران عام 51 . وجدت هناك كوميرو وبطاطي . تعانقنا بحرارة . حوالي عشر سنوات مضت على عراكتنا . كانا يلعبان زهر النرد (البَرْشِي) ويشربان الماحيا من قنية خفية في كأس صغير . غافلت معلم الوجاق فشربت كأسى . وجهاهما ينماز عن ادمانهما على هذا الشراب القوي . كوميرو يستغل اليوم حاجبا في البريد . بطاطي سقط من على ظهر شاحنة محملة بالسلعة : كان يعمل فيها مساعد للسائق فتكسرت رجله وأصبح يعرج . قال كوميرو مازحا :

- لقد تعمد أن يسقط حتى يستفيد من التأمين ويتخل عن العمل طوال حياته . انه أكسل من عرفت . ألا تذكره ؟ هل رأيته يوماً يستغل ؟ كان يسرق أباً بهارة ، عندما مات لم يعرف كيف يسرق الآخرين .

ابتسمت ولم أقل شيئاً . فكرت : بطاطي كان يسرق في مقهى أبيه عندما ينوب عنه وقت القليلولة أما أنت فقد كنت داهية في سرقة الآخرين .

سألني كوميرو :

- وأنت ، أين وصلت ؟ إننا نعرف أنك تدرس في العرائش .

- نجحت في الدخول إلى مدرسة المعلمين في تطوان .

- ستبقى معنا أذن طوال مدة التدريب .

-نعم .

قال بطاطي :

-أنت الرابح والمحظوظ بين جماعتنا .

- في أي شيء ؟

- انه امتياز . (أضاف) أفضلنا لم يستطع أن يصبح أكثر من عامل أو تاجر صغير أو مهاجر إلى الخارج . ان حياتك مضمونة مع الدولة ، ثم انك ستصبح أستاذًا .

- لقد صار التفريسيتي أيضاً غنياً .

- التفريسيتي شيء آخر . أنت تعرفه خيراً منا . لقد كنتما متلازمين . انه يأكل ويختلف أن يجوع . لقد عاش شحيحاً . لو كان يستطيع لباع بعض المصبات من بزولة (ثدي) أمه وهو في الرضاع .

- لكنه اليوم يتفق جيداً على نفسه .

- كفى ، انك لا تعرفه اليوم .

- أعرف ، انه ينفق على من يظنه مهمين .

- ها أنت بدأت تفهم الآن . لقد ترك أباه يموت فقيراً في كوخ وهو يسكن في شقة اشتراها في عمارة فخمة جديدة . انه سيموت وعلى وجهه الجوع الماسخ .

قال كوميرو :

- لم يبق في المزيلة سوانا . لكتنا لم نبلغ حافة اليأس . أتدرى أنه حتى البطيخة الذي كنا نتناوله عليه بستيمات ، أو بتذكرة السينما ، صار اليوم أيضاً غنياً ويستغل الغلمان . انه متزوج ولهم أطفال .

عند الكأس الرابعة بدأ رأسي يدوخ . تملكتني وسوس : قد يتocom مني كوميرو اذا أنا ثملت . ان النوبة التي سببتها له أثرها بارز على خده الأيسر . اعتذر لها عن انصرافي . قال كوميرو بلهجة ودية ناسيا حقد تضاربنا القديم :

- متى سنراك؟

- سأبقى هنا سنة كاملة . سأتردد على المقهى .
غادرتهما وأنا في كامل بهجتي . لو شربت كأساً أخرى ، أو
اثنتين ، لفقدت تماسكـي . السابعة .

كوخ الشؤم لن ينام إلا بعد ساعات . حـيـ الترانـكـات يموج
بالحركة كما تركـته في نهاية الأربعينـات والخمسينـات . ربماـ اليوم
أكثر . اختفت وجوهـ منـ الدـكاـكـينـ، وـحلـتـ فيهاـ وجـوهـ أـخـرىـ .
بعضـهمـ شـاخـ سـيـئـاـ . أمـيـ تـخـبـرـنيـ عـمـنـ اـخـتـفـىـ مـنـهـ بـالـمـرـضـ أوـ الـمـوـتـ .
حـبـيـةـ هيـ المـنـقـذـةـ فـيـ هـذـهـ الـلـيـلـةـ . استـقـبـلـتـنـيـ بـتـرـحـابـ . ربماـ فـهـمـتـ
أـنـيـ أـفـضـلـ النـوـمـ عـنـدـهـ . اـبـسـامـتـهـ الـلـطـيفـةـ وـمـصـافـحـتـهـ الـوـدـيـةـ أـكـدـتـ
لـيـ أـنـهـ الـلـيـسـ غـاضـبـةـ مـنـيـ . ربماـ هـيـ أـيـضاـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ مـنـ
يـؤـانـسـهـاـ .

- سـبـقـىـ صـدـيقـينـ .

ابـتـسـمـتـ وـوـافـقـتـ بـهـزـةـ مـنـ رـأـسـيـ . كـانـتـ هـيـ الـأـقـوىـ . عـبـثـاـ
أـحـاـولـ أـنـ أـكـونـ أـفـضـلـ مـنـهـاـ . فـهـمـتـ مـنـهـاـ أـنـ يـنـبـغـيـ الـأـتـكـونـ بـيـتـنـاـ
شـهـوـةـ الـجـسـدـ . كـؤـوسـ الـمـاحـيـاـ غـلـبـتـنـيـ مـثـلـمـاـ يـغـلـبـنـيـ الـأـغـوارـ دـيـنـتـيـ ،
وـالـأـنـسـ دـلـ الـمـوـنـوـ أوـ التـرـيـ . اـسـتـرـخـيـتـ عـلـىـ الـمـطـرـبـةـ وـغـفـوتـ .
أـحـسـتـ بـغـطـاءـ فـوـقـيـ . هـذـاـ مـاـكـنـتـ أـحـتـاجـهـ .

نـمـتـ حـوـالـيـ سـاعـتـيـنـ . . كـانـتـ قـدـ أـعـدـتـ الـعـشـاءـ وـاشـتـرـتـ
زـجاـجـةـ نـبـيـذـ أـبـيـضـ . أـنـعـشـنـيـ تـرـطـيـبـ رـأـسـيـ وـوـجهـيـ بـالـمـاءـ الـبـارـدـ .
فـرـيدـ الـأـطـرـشـ يـعـنـيـ فـيـ الرـادـيوـ : يـا زـهـرـةـ فـيـ خـيـالـيـ .

15

جیسا گری

تعتَّر روساريyo أنها من أستورياس، وأنها ولدت في AVILES، وأنها تتكلم البابلي (دارجة يتكللها أهل أستورياس)، وأنها تكره فرانكو حتى الموت، وأنها تزوجت من ضابلاً من خيرون مات مشهداً بالديمقراطية.

غالباً ما تكون، أنا وفرمين فيتو FERMIN FEITO وحيدين في قاعة المطعم الصغيرة : أربع موائد . أحياناً، تشاركتنا أحداها ماريا روساريyo مدخنة وراشفة قهوتها أو كونياكها أو هما معاً . فرمين فيتو يعتز ، هو أيضاً، بولده في بلدة الفِرُول EL FERROL (مسقط رأس فرانكو) .

من عادتنا، أيضاً، ألا نجلس معاً إلى مائدة واحدة . عرضت عليه مرة أن يجلس معي فاعتذر بأدب بالغ . روساريyo تجلس معي عندما أكون وحيداً . جلوسنا معاً فيه نوع من التواطؤ ضده . انه

ستبήج عن خواء ، كما تقول روساريو . عندما يكون حاضراً تنفرد
بمائتها أو تبقى في المطبخ أو تذهب وتجيء . انه بالغ الحساسية
ووجهه لا يوحى بالصدقة . هكذا قالت لي عندما رأته يرفض
الجلوس معي . هذا المساء لم نسمع صخب لعبهما الورق . شيء
يقصنا رغم ازعاج فيتو من صراخهما . من يعش الآخر ؟ إننا لسنا
الأشاهدين على احتجاجهما ، لكن كاريون يحتاج أكثر منها . ان
صراخها يعلو أكثر منه لتغطي غشها كما يقول فيتو . عندما ذهب
فيتو عرفت أنها حانقة على حفيتها كانديدا . تدخن سجائرها
الرخيصة وتشرب كونياكها الردى . تظهر وتحتفظ مضطربة وكأسها
في يمناها ، وسيجارتها في يسراها . فرت كانديدا من داخلية جمعية
أخوات الاحسان ، في طنجة ، منذ ثلاثة أيام . أكيد أنها لم تخرج
من المغرب ، ولم تذهب عند أمها الممروضة في سكناس . قد تكون
عند صديقتها ماريسا في طنجة . ان جواز سفرها تخفيه عنها
جدتها : 'لقد عانت الكثير من أمها والآن جاء دور ابنتها . ' هكذا
قالت لأنجها ، لكن كريون لا يعلق بشيء على ما تقوله اخته . إنها
تكبره سنوات . في أبريل الماضي احتفلت بعيد ميلادها الثاني
والستين . كريون يدخل بعده الذي يبرمه بمهارة متلماً شرب
الكاراخيو (قهوة ممزوجة بالكونياك) ، ويسلّي نفسه بقصص
الأطفال المصورة . عندما يتكلم يهمهم ، لكن اخته تفهمه بوضوح
أنفه مهشم . ملتو . أهي سقطة ؟ لومة عنيفة ؟ يتقوّق في المطبخ
متحاشاً ما يمكن الحديث مع الزبائن . روساريو لها مزاج أندلسي
رغم أنها من أفاليس ، وتعابير محببة لا أسألها عن معناها . لقد
عاشرت كثيراً الأندلسيين الذين هاجر معظمهم المغرب بعد
الاستقلال . سمعتها تخطاب حفيتها عندما زارتها ورأتها تطل من
الشرفة إلى الشارع : 'أيتها الطقلة ، أغلقي النافذة . ان ثور الريح
سيأخذك ... ' . كل شيء له استفهامه . ' من يتكلم عن ربيع

الروح وهناك ذلك الجدار المنبع ... " لكنها هو اليوم ثور الريح يأخذها ، وأصبح هروبها علامه استفهام ، وقفزت فوق جدار داخلية أخوات الاحسان المنبع ، ولا تعرف جدتها أين ذهبت !

أحب روساريو عندما يحتمل نقاشها مع فيتو حول الحرب الأهلية الاسپانية ، أو حول الكنيسة والرهبان . تهزم بحججها . تستشهد كثيرا بما تقرأه . انها محظوظة لأن قلة من بنات جيلها الفقيرات أتيحت لهن أن يتعلمن . أؤيدوها دائما ، حتى عندما تكون مخطئة ، ضد فرمين فيتو . انه يغتابها بلهجة خبيثة كعادته . هذا المساء قال عنها بصوت خافت شامت : " ان العجوز الساحرة قد هرب لها قديسها الى السماء (يقصد أنها لم تعد تعرف ما تُقدم وما تؤخر) . أراحتنا من صراخها مدافعة عن غشها في الورق . مسكون كريون الذي قدر له أن ينهي حياته في ظلّها ! إنها ملحدة ومنافقه ! "

لكن روساريو أشرس منه عندما تَمَّ عليه : " بخيل ، اتهافي ، منافق ، يحضر القداص يوم الأحد حتى ترضى عنه الهيئة дипломاسية الاسپانية . انه يجهز ملفه لضمان عودته الى اسبانيا مواطنا صالحا لكي يحصل على ترقية العمل هناك بامتياز . أتدرى لماذا يجد فرانكو؟ لأنه من نفس بلدته . يعتبره أفضل من حكم اسبانيا بعد الملوك الكاثوليكين : ايسابيل وفرناندو ، وكارلوس الثالث . أليس أبله ... "

حكت لي بصوت أليم عن زوجها الشيوعي الذي أعدمه الفاشيون في تطوان : " كان فرانكو يتناول افطاره وهو يوقع على الاعدامات . عشرة ، على الأقل ، كل يوم . وكان زوجي واحدا من تلك الافطارات السامة . أتدرى كيف استولى على الحكم؟ قيل أن أخيه نيكولا هو سبب هذا التاريخ المنكود في اسبانيا . ان القانون العسكري الذي سنه رفقاؤه في الانتصار يُنصُّ على أن فرانكو هو رئيس الدولة والحكومة مؤقتا ، لكن أخيه دفع النص الى المطبعة بأمر

عسكري مستعجل، حاذفا مؤقتا، فأصبح حكم فرانكو أبدا . دكتاتورية مؤقتة لاعادة النظام الى البلاد ثم يذهب الى الباية ليعيش في هدوء كما قال يوما ساخرا . لكن بعد أن استتب له الحكم صار يقول : "ان حكمي يدوم مدى حياتي . اسبانيا ملكية بدون ملك ، لكننا ملكيون" ، ولكي يدعم أبديته كان لا بد له من أن يشرك الكنيسة في الهبة السماوية التي اختلفها حتى صارت حربه نوعا من الصليبية ضد الشيوعيين . كان لا بد له ، أيضا ، من أن يبعد عنه معظم الذين تعاونوا معه في النصر أو نفوا أنفسهم الى فرنسا ، والمكسيك ، والأرجنتين ، وروسيا . لقد تخلى عن خوسيه أنطونيو بريودي ريفيرا (1) ليقتله في سجن أليكانتي حتى لا يزاحمه أحد في فاشيستيته . كان في امكانه أن يقايسن به الزعيم الاشتراكي لارغو كابايرو LARGO GABALLERO لكنه آثر أن يعدمه لكي يتخلص من الاثنين . لم يكن يثق حتى في ظله . لا يغامر أبدا بتقرير شيء اذا لم يكن المسجون عنده فيه نفع يديم له حكمه . لم تكن اسبانيا ، لصياد الأرانب والثناذير البرية ، سوى ثكنة عسكرية . أتدرى لماذا كان يصر على الظهور باللباس العسكري البحري المزدان برتبة قبطان جنرال للبحرية؟ لأنه رسب في الالتحاق بالأكاديمية العسكرية البحرية في طليطلة . وهاجم أيضا الماسونية لأنه لم يسمح له أن يكون عضوا فيها . كان رفقاء الضباط يسمونه "الرجل ذو الميلات الثلاث" . (2) .

هكذا باركته النجوم . ومع ذلك فإن فيتو لا يخجل من أن يقول إن الكاوديو هو الذي أعاد لإسبانيا مجدها الذي فقدته عام 1898 .

(1) مؤسس الفلانخي : منظمة الكتاب المعرفة بالقصاصان الزرقاء

(2) لا خوف ، (أولاً لم طبعن كما يمرى البعض) ، لنساء ، لا قداس

- ولكي يعاد لإسبانيا بعض من أمجادها المندحرة في كوبا، وبيوريكو، وجزر الفلبين كان لا بدّ من افتراس جزء من المغرب ثم تجنيد المغاربة السذج في جيشه، طوعاً أو عنوة، ليحاربوا الذين لا يؤمنون بالله كما قال لهم .

قالت :

- ان أطماء الطغاة لا حدود لها كما تعرف . أعتقد أن فرانكو كان أمكر من ملهمه في الدكتاتورية ميجيل برعمودي ريفرا . فرانكو يدعى دائمًا أنه في عمقه ملكي ، لكن الملكية الإسبانية ظلت منذ قرن كامل وهي تجرب أذىال الهزيمة ، وتوهم نفسه أن السماء أرسلته ليمحو تخاذلها ، والحزن الذي تردد في هذا القرن الإسباني . ولم يقتصر هذا الغرور على إسبانيا : فلقد أعلن إثر انقلابه العسكري ضد الجمهورية الثانية رسميًا : " لنا الفخر أن تكون أول دولة تنهض للدفاع عن الحضارة الغربية المهددة بالأفكار الشرقية . " لكن قيمة هذا الدفاع المتبعج ظهرت عندما أقصي الرأي العالمي ، بعد عشر سنوات ، من مجلس الأمم المتحدة . لم يسانده في عزلة حكمه إلا الجنرال برون PERON . واستمر حوالى عشر سنوات أخرى لكي تشفع له الولايات المتحدة (1) والفاتكان (المصلحتهما) فتدخل إسبانيا مجلس الأمم المتحدة عام 55 . وهكذا ربح الحرب نهائياً وزاد وقته لرسم مراكبه الغارقة . (2) والخيانة ، في نظره ، أيضاً ، تأتي دائمًا من الجبهة الشعبية الوطنية التي لا تساند الجيش . إنها ترهبه ولا تثق فيه لأنها ، وهي على حق ، يخدم مصلحته على حساب تضحياتها . هل يعقل ، مثلاً ، أن يحكم بالإعدام على جندي من الليخيون (3)

(1) إنشاء قواعد أمريكية في كل من تريخون TERREJON ، سرقسطة ZARAGOZA ، مرون MORON ، رروتا ROTA فضلاً عن مساعدات اقتصادية هائلة .

(2) كان يمارس هواية الرسم ومواضيعه المحببة رسم مراكب تفرق .

(3) فرقة المتطوعين المرتزقة .

في المغرب أساء الأدب على رئيسه لأن رفض أن يأكل العدس الذي لم يعجبه؟ ان النصر العسكري يأتي من انضباط الجنود وطاعتهم العميماء حتى ولو كان رؤساؤهم سخثين . هكذا كان فرانكو يبرر جرائمه . لم يكن يرى في الأحزاب السياسية سوى التفرقة والانسلاخ عن حب الوطن وعدم خدمته . أما الألمان فقد كانوا يعتبرونه إكليروسيارجعياً وليس فاشستياً حقيقياً . لا يؤمن إلا بفعالية نظامه وشرعية انقلاب الثامن عشر من يوليوز .

لم يفاجئني رسوبى في امتحان التخرج . لقد أهملت ، عمداً ، كل مواد الدراسة لأقرأ الأدب ، لكن تعيني في طبعة عزانى . جارنا ، المأمور في نيابة التعليم ، سيخبر أبي . سيسرا لأن رسوبى يؤكّد ما كان يعتنى به من جهل . لم أشعر بأى خزي ولا ندم حتى اليوم .

شفى عبد العزيز وارحيمو . عاد هو الى دراسته ودكانه الصغير ، وعادت هي الى خياطتها والعنابة بالكونغ . أبي لم ينقطع عن حلقات المعطوبين في ساحة الفدان أثناء مرضه وبعد شفائه ، لكن نوبات الربو بدأت تطرّحه في الفراش . ظل يعاني منه حتى مات عام 79 ..

زرت أمي في سوق باب التوت . أعطيتها مساعدتي الشهرية . أضفت لها مبلغاً لتعطيه لأبي . أعرف أنه سيصدق على ذلك المبلغ البسيط ويلعّنني كعادته ، لكنه لن يرفضه أو يتصدق به على متسلٍ . سيكتفيه لنشوّقه وأكواب شايه لأسابيع في الفدان . لقد كنت أريد إرضاء أمي لا إرضاءه . لثمت يدها . دمعت عيناهما وأنا أودعها . لم تلحّ علي في تفقد أسرتنا بين فترة وأخرى . أكيد أنها علمت برسوبى . . استبطنت علّمها في نظرتها إلىّي ، لكنها لم تقل شيئاً . إنها تعرف أن عادتي هي أن أجيء أولاً أجيء ، بمناسبة أو غير مناسبة . اشتريت هدايا صغيرة لأخوتي ، ولحبيبة ، وجاراتنا الحدباء .

رأيت السمراء في الشارع . تبعتها حتى رأته . توافت أمام واجهة متجر وبدأت لعبة الالتفات . ابتسمت . كافحت خيتي وذهبت إلى حانة ريبيرتيتو . فكرت : حماقة تافهة . ان الحب لعبة قدرة . لا أريد أن أعيد ما حدث لي مع كنزة . تذكرت قصة قاسم مع صديقته اليهودية نتالي قبل أن يُجَنَّ : كانت الثالثة صباحا . المطر يسقيني قدام منزلها . كنت مثل شجرة ميتة . كلبها الضخم ، الشرس ، ينبع على وراء شباك باب الحديقة . رفعت عيني نحو السماء في مذلة . أغمضتهم . قطرات تدغدغ أجفاني . بدأت تغزوني الحُمَى . فمي مفتوح وعيناي مغمضتان . حب خائب . مطر وليل لا ينتهي في وهمي . الحلم بها كان هو نسر ذلك الليل المطير . تجمع كل غضبي في يدي معاً . خبطة بهما الجدار . المطر يغسل دمي . ربما هي الآن تنظف أمعاءها وأنا هنا أستيقن زهور تفكيري فيها في ظلام هاطل . بهذه بطولة الحب؟ ليسقط هذا المستحيل! هكذا رفعت صوتي نحو السماء . أعرف أن ظلا لا كانت دليلاً من ضلوا طريقهم . صرت ظل نفسي وحكمت عليها بالنفي الأبدى .

شربت كؤوساً من نبيذ خيريث ، ثم ذهبت عند أنيتا في بات التوت . ان احترافها لم يفقدها رقتها وطبيتها . ذكرتني نظافتها المعطرة بكرستوفالينا في طنجة . هذه هي المرة الثالثة التي أجيءَ عندها منذ اكتشافتها في بداية هذا الشهر . شربت عندها كأسين من الأنيس دل المونو *Anis del mono* .

جاءت كانديدا منذ أيام مع أمها من مكناس . رفضت العودة إلى داخلية أخوات الاحسان . هذه أول مرة أجلس معها . تحدثنا عن الكتب والكتابة . بدت لي أعقل مما قالته لي عنها جدتها . روساريو تعزو فشلها في دراستها إلى حبها الشاب هاجر مع أسرته إلى قرطبة . أبوها أيضاً هرب من الفاشيين إلى كندا قبل أن تولد بشهرين . كتب رواية عن المناضلين الجمهوريين الإسبانيين في شمال المغرب .

سمعنها ولم تصلنا . أخباره انقطعت عنا منذ أكثر من عشر سنوات . هكذا قالت روساريو .

كانديدا تقرأ كثيرا . تكتب خواطرها الرومانسية عن خيالاتها في الحب وساميها من الحياة ، وسوء حظ أسرتها . تجتاز العشرين من عمرها وبدأت الهموم تنضجها جيدا ، لكنها لا تعرف ما يمكن لها أن تفعله في المستقبل . كنت قد اشتريت زجاجتين من نبيذ ريو خا ، وبطة كبيرة أعدها كريون بنفسه لأنه يعتبر نفسه أمهر من أخيه روساريو في طبخ الدواجن . كريون اعتصم ، كعادته ، بالمطبخ ليتعشى وحده . كان عشاءي الأخير مع أسرة روساريو . فرميin فيتو لا يجيء أيام الأحد ، لكنه لو جاء فلربما اعتصم بمايأdestه حتى وإن شاركنا في العشاء .

16

من العسل إلى الرماد

عينوني في مدرسة الحبي الجديـد للبنـين والبنـات . أـسندـوا إلـي
القـسم التـحضـيري . القـسم ، فـي جـانـب من السـاحـة ، بـراـكة من
خـشـب تـقـطـر فـي الشـتـاء وـقد يـنـقـ قـرـبـها ضـفـدع . أـكـثـر من أـرـبعـين تـلـمـيـذاً
في كـل سـنة . عـدـد البنـات لـأـيـجاـزوـ الرـبـيع ، اـنـه نـداء التـعـبـة من أـجـل
الـتـعـلـيم بـأـبـسـط الـوـسـائـل المـمـكـنة . باـئـسـون : وـسـخـ ، جـوعـ وـمـرضـ .
أـرـفـع قـلـمـاً فـي يـدـي وـأـسـأـلـ :
ـ ماـهـذـا ؟

يـجيـبـون جـمـاعـة :

ـ ماـهـذـا ؟

ـ هـذـا قـلـمـ .

يـجيـبـون :

ـ هـذـا قـلـمـ

- وهذا؟

- يجيبون:

- وهذا؟

- هذا دفتر.

- يجيبون:

- هذا دفتر.

تقىً تلميذ بقایا زيتون فقال واحد منهم :

- انه يأكل الزيتون مع أبيه السكير يا أستاذ.

باسَ تلميذ تلميذة فكانت مشكلة . ولكي أرّد لها الاعتبار أمرتها أن تبوسه هي أيضا فكفت عن البكاء . انها محنّة الجهل في بداية الستينات : من يُعلّم ومن يتعلم . بعضهم لا دفتر له ولا قلم . وجباتهم لا يتناولونها بانتظام . بينهم واحد أحمق . سماه التلاميذ " طمخوخ " . يصر دائمًا على الجلوس في الصف الأول على أي مقعد يريده . يسلّي التلاميذ حين لا يضرب أو يغضّن . أسنانه كبيرة . وجهه منغولي . يرمي على ، أحياناً ، حين أكتب على السبورة ، قطعة طباشير أو ورقة مدعوكه مكوره . عاقبته مرّة بالمسطرة على يده فامتلا وجهه غضباً وبدأ يتفضّل . تلك كانت المرة الأخيرة التي أهتم بوجوده في القسم . كان الملعون يتسلّى . قدمت عنه تقريراً إلى الإدارة . بينت أن عملي يتعطل بسببه : " خير له أن يبقى معنا في المدرسة بدلاً من أن يظل يزعج الناس في الحسي " . هكذا ردّ على المدير . يعترض طمخوخ أيضاً الحافلات العمومية واقفاً في وسط الطريق . يهبط الحصان ويعطيه ستيمات ، أو أي شيء يأكله ، أو يتسلّى به ، لكي يترك الحافلة تمر .

داخل القسم يتمثل نفسه قاطرة وصفوف التلاميذ وراءه عربات : تشف ... تشف تشف ... عووع ... ! عووع ... !

كل القسم يضج بالقهقهات . ينام ويستيقظ في القسم متى

يشاء ، ويخرج ويدخل متى يشاء . قد يخرج ولا يعود فأتاح .
وعندما يغيب أكثر من يوم أتمنى ألا يعود ، ولكنه يعود .
زارني مفتش التعليم زيارة تفقدية . شكوت له حمق طم خوخ .
لم يصدق حمقه . اقترب منه ومسدّ له شعره الخشن ، المشعش ،
بحركة لطيفة :

- أنت بعقلك ، علاش كتعمل الفوضى ؟
وما أن هبّط يده مربّتاً على كتفه حتى انقضَّ طم خوخ على يده
وأعضها . ضجع التلاميذ بالضحك ثم أصمتتهم نظراتي . أنا نفسي
بذلّت جهداً كي أغالب ضحكتي . بسبب هذه الحادثة طرد طم خوخ
من المدرسة ، لكن لا أحد يستطيع منعه في الحقيقة من اعتراض
الحافلات العمومية وغيرها من السيارات والدراجات النارية . وبعد
غيابه أخذ التلاميذ يتأسفون على طرده .

لقد أدركت أن هذه المهنة لم أكن أهلًا لها . ينقصني الصبر
الجميل للوفاء لها ، لكنه لم يكن لي الخيار بعد حصولي على شهادة
البروفيه . (ثلاث سنوات من الدراسة الثانوية في ذلك الوقت)
جاءت لجنة إلى ثانوية مولاي عبد الله في العرائش وأجرت لنا
اختباراً في رزات الذكاء . نتيجتي كانت من بين الذين قررت اللجنة
إيقافهم عن الاستمرار في الدراسة لكبر سننا . سني رسميًا كانت
عشرين سنة ، وفي الواقع خمساً وعشرين .

سكنت من جديد في بنسيون لا بلاتا . وربما الاستعادة ذكرى
ربيعة وكترة . فضلت غرفة صغيرة على السطح مطلة نافذتها على
البحر وسطوح المدينة القديمة . يجاورني توماس الروخو في كونخه
الخشبي . يعيش حياة عنكبوت . يكره فرانكو مثلما يكره المرء دم
أسنانه : لم يكن فرانكو ماهرًا في قتل الأرانب والخنازير ، كما يقال
عنه ، بل كان ماهرًا فقط في قتل أ Nigel الناس . كان رفاقه في الصيد
وأعوانهم هم الذين يقتلونها ويضعونها عند قدميه فتؤخذ له صور

مزهوة . كان أيضا يرسم ، دون أية موهبة ، مراكب تغرق . كيف يمكن لمن يدعى حب الفن أن ينفي بيكتاسو ؟ قيل أيضا أنه كان معجباً بفابي-إنكلان VALLE-inclan لكنه سمع بقتل لوركا ، وسجن ميجيل إرنانديث MIGUEL HERNANDEZ حتى الموت تاركاً زوجته ترخص ابنهما البصل من صدرها (1) هذا أيضا ما يقوله توماس .

يعيش توماس منعزلاً في كوخه وفي الشارع . دار إسبانيا يعتبرها ملحاً لمعطوي الفكر : تلفزيون ، ولعب الورق ، والخمر . في النهار يبيع بالونات الأطفال في البولفار ، وفي الليل يقرأ روايات الكلاسيكيين الروسيين ، والفرنسيين ، والإسبانيين ، والإنجليزيين .

نبيله أبيض رخيص ، وتبلغه مُقرّ (مفروم) . قبل النوم يشرب من زجاجة يملؤها بالماء ممزوجاً بعصير الليمون . لا يحب أن يناقش أي شيء بعمق . ان حكمه على الأشياء يقتصر على أن لا شيء سيء كله ، ولا شيء جيد كله . لا يحب الذين يحللون الأشياء من العسل إلى الرماد .

أغبطه على وحدته . يكاد يكون الوحيدة ذاتها : الموت الصحو . كان قد جاوز السبعين ، ومن حسن حظه أنه لم يكن يعاني من أي مرض . مصارعة الشiran انتهت ، في رأيه ، بموت خوسيليتور ، ومانوليتي . يحب الخوطا الأراغونيسا ، والفادانجو ، وطانجو كارلوس غارديل ، وكونشا بيكر ، رغم ميلها إلى حكم فرانكو . نشرب معاً ، أحياناً ، زجاجة نبيذ في كوخه المُغبر . السيدة خوسيفينا ، صاحبة الفندق ، هي التي تنظف الغرف بنفسها ، لكنه لا يتركها تدخل كوخه إلا لتغيير الأفرشة . يعتبرها فضولية ، وسلطة اللسان ، ورائحتها مُغاثية .

(1) إشارة إلى آخر قصيدة للشاعر كتبها في سجنه : (مناغاة البصل) وهي مهداة إلى ابنه الرقيب على اثر استلامه رسالة من زوجته تقول له فيها بأنها لم تعد تأكل سوى البصل والخبز .

ريعة تزوجت بضابط في الجيش المغربي . تعاشا في طنجة .
كتزة ترقص في ملهى الكتبية .

انتهى في طنجة زمن الدعارة الجميل . المراخير الخاضعة للرقابة الطبية منعت منذ سنوات . دور سرية، وفنادق حقيرة حلّت محلها لتمارس فيها المحترفات الهرمات مهنتهن مع الوافدين من البادية ، بحثاً عن عمل ، وفقراء المدينة ، بأبخس الأثمان . بعضهن ^{تبّن}، إنقاذاً لكرامة شيخوختهن ودينهن فصرن يعملن في المطاعم ، والفنادق ، ومنازل مُخدّثي النعمة . لقد نَمَت لبعضهن شوارب خفيفة ، أو زُعْجَيات متفرقة خشنة وتساقطت أسنانهن . قليلات هُنّ اللواتي اغتنين بدعاراتهن فاشترن دوراً وأراضي أيام عودة الأجانب إلى بلدانهم فتقاعدن في نعمة . والآخريات الأكثر شباباً وجمالاً ، هاجرن إلى إسبانيا ، وفرنسا وبلجيكا ، وهو لاندا وألمانيا . . . وفي أواخر السبعينيات كان جيل جديد من المحترفات الشابات ، المتحررات في لباسهن ، وتعابيرهن ، وأوضاعهن الجنسية ، قد اكتمل نمو أجسادهن واستوى غزير المدينة مثل الجراد ، جثن من كل المدن . إنه جيل الفنادق الفخمة ، والعلب الليلية ، والمخدرات (1)

كنت أقرأ أي كتاب أ عشر عليه دون تمييز ، لكن كتب الأدب وعلم النفس تستأثرني أكثر . أقرأ وأكتب في أي مكان مثل هذه الخواطر :

1961-9-25 مقهى ستراجل .

«إن المرأة التي أعيش معها دائماً إذا لم تجعلني أعزف عن كل النساء فليست هي المرأة التي ينبغي لي أن أعيش معها . ينبغي لها أن تكون هي كل النساء ، وكل النساء لسن هي . ينبغي لي أن أميزها . في الظلام حتى وإن تكون بين جميرة من النساء . إذا انطفأت

(1) كان للهيبيين الذين وفدو على المدينة في السبعينيات دور كبير في انتشار المخدرات على أنواعها .

الشمع يضيء كلانا الآخر . إذا حجبونا بستار سميك أراها وتراني . المرأة النور الحارق . المرأة الشفافة . لم أجدها بعد . » في الوقت الذي كنت أكتب فيه مثل هذه الخواطر عن المرأة المثالية كنت أستعد مضاجعة أحط النساء في البيوت الخفية المتبقية من موانعير طنجة : انحلال الروح في الجسد ، هذا ما كان يمكنني في هذه المرحلة ، وربما قدرني .

سمعت واحدة من هؤلاء تقول لرفيقتها : يقول لي الرجال دائمًا : "إنك جميلة . . . ! لكنني عرفت هذا قبلهم " .

يخيل لي أن المرأة هي مرأة نفسها من التبرعم الأول حتى وهن العمر والعجز . إنها تبدأ في مراقبة جسدها قبل الرجل . إن الاستمناء والجنس المنحط هما اللذان أنقذاني من السقوط في فخ الحب الخائب . باكراً اكتشفت أنني أحب مزاج العاهرة ، لكنني لا أستطيع العيش معها . إنها تعتقد أن الرجل هو الذي عهرها فتقضي كل حياتها لتعهره مثلها .

لنحلم قليلاً أكثر . أكثر من الحلم . آه من طائر البقر ! ومن السمكة التي تقود سمك القرش ! ومن طائر التمساح ! ومن عصفور الكركدن ! ومن العبد المُقيَّد إلى مقعده ، وهو يجذف ، سُساطاً حتى يدمى ظهره ! اليوم يخرمه الرصاص قبل أن يتشكل له ظل قامته في الشمس أو يتسبح في الليل في فراره .

لا أحد يأتي بعد أن يجيء الأخير . ربما هي السبب في مجئي الأخير . لقد تركتها تغتصب في ما كنت أريد أن أعرفه فيها . من آخذ حكمة اليوم ؟ الأذكياء جنوأ أو هم يهذون في الشوارع والأحقون بالبقاء هاجروا وكبلتهم العزلة بسلاسلها الثقيلة . لقد بدأ سفرهم قبل أن يهاجروا . رأيتهم يشربون الكؤوس الأخيرة . حفنة من تراب الوطن رأيت أحدهم يحملها في كيس صغير كحرز . ربما يسمد بها بذوراً ما في غربته القهيرية ! قد يغرس فيها جذور

النعنع . إنها مشيّة البُؤس في وطنه . كان يقول لي بينتis في أصيلة : ستأتي الأزمنة الرديئة . لكن متى كانت هناك أزمنة جميلة ؟ أقول له .

لمن هذه الأنغام الحزينة التي أسمعها من بعيد ؟ إنها للراحلين في الجمارك وهم يزحفون واقفين . بطيء زحفهم يذلهم حتى نخاع العظام . إن مذلة الوطن أقسى عليهم من مذلة الغربة . سمعت أحدهم يتنهّد ويقول : إن هذا الليل سيدفنا هنا . كأنما ذكرى الليالي الماضية ، المرعبة ، تبعث كلها من ليل هذا العبور . لقد تعودت على الشمس والبحر . كيف لي ببحر دون شمس ! الضباب ، إذا زارنا ، نندهش . هل فقدت السماء لونها المرآتي فوق أرضينا ؟ الشمس تضحك لنا قبل أن ترسم للأخرين ، لكنهم حجبوها !!

كفى من هذا الهراء . تعلم كيف تحلم بالعالم الأخرى ، كما أصحابها يحلمون بها . لا ثغمض الأشياء . كثيراً ما يتغذى الصالح بالطالع . وجوه لا توحّي لك بأي إحساس تحبه ، لكن لا بدّ من رؤيتها .

لقد سحقتنا الحانات الجديدة في هذه المدينة . وجوه لا توحّي لك إلا بالمشاكسة والغباء . أصحابها أفعى من زباتها . يا حسرة على مدام ترودي ، والصرصار ، والباراد . (1) لم يكن أحد يتسلّل فيه كأسه . كان مثل (الشجرة التي تغطي كل الغابة) . كان المركز ، أما اليوم فحانات مسوخة وأربابها أمسخ منها . ساعة الرغبة تقترب . قد توحدنا ، لكنها ما أكثر ما تبعدنا حين نريد أن نلتقي أو نتماسك على الأقل . أحسني ، أحياناً ، مثل ثور المصارعة الذي يخرج من نفق الظلام إلى النور لينطبع الهواء ، ويشهد أماميته وخطمه في

(1)PARADE

الرمل مبددا صدمته قبل أن يبدأ صراعه مع قدره المحتمم . إنه العيش في زمن الأخطاء . لقد تلوثت بليل الشارع . حتى مجانيته اللطفاء تصوّموا . صاروا أعقلا ! استطالت لحاظهم ! ليس بدعة في حياتهم لكنما استسلام . ليل البيت البعيد . هذا ما أشتاقه . ليل الجنين إلى الشارع . ليل الحلم بالأسفار البعيدة . أن أغترب ولو في ضاحية من المدينة . اتربى وأغتربي يا طريقي المنساء . كل الأمسيات والصبيحات تنتظرنـي هناك .

سكنـت في فال فلوري VAL-FLORY فريـباً من مدرستي . سأكتب عن مزعـجـاتـ المـديـنـةـ . سـأـكـونـ ضـدـهاـ . ماـقـدـ يـنـشـيـ منـ بـهـجـتـهاـ يـنـعدـمـ فيـ ضـجـيجـهاـ . زـمـنـ طـوـيلـ لـمـ أـرـ فـيـهـ الشـرـوقـ ، وـطـرـاوـةـ الصـبـاحـ ، وـنـدـاـوـتـهـ . سـأـسـتـيقـظـ عـلـىـ الـأـنـسـامـ أوـ الـعـوـاصـفـ أوـ الـفـيـضـانـاتـ . لـاـ يـهـمـ . سـأـكـونـ هـنـاكـ . أـيـهـاـ الطـيفـ الـذـيـ لـمـ يـعـدـ طـيـفاـ إـلـاـ فـيـمـاـ لـمـ أـعـدـ أـقـدـرـ عـلـىـ تـخـيـلـهـ . هـيـاـ نـحـلـمـ قـلـيـلاـ أـكـثـرـ ، أـكـثـرـ مـنـ ذـكـرـيـاتـ طـفـولـتـنـاـ ، سـعـيـلـةـ أوـ شـقـيـةـ . أـكـتـبـ مـاـ أـمـزـقـهـ فـيـ يـأـسـ . يـعـجـزـنـيـ جـمـالـ التـعـبـيرـ . كـيـفـ تـأـتـيـ الـكـتـابـةـ ؟ـ إـنـيـ قـزمـ نـفـسيـ . إـيمـوزـارـ ، إـيـفـرانـ ، وـبـحـيـرـةـ «ـضـاـيـاهـ عـوـاـ»ـ ، بـعـيـداـ عـنـ أـثـرـيـاءـ الـصـدـفـةـ . هـؤـلـاءـ يـبـعـثـرـونـ أـمـوـالـهـمـ عـنـ أـقـدـامـ الـيـائـسـاتـ مـنـ النـهـارـ . أـمـلـهـنـ فـيـ اـجـتـرافـ الـلـيـلـ وـمـاـ يـأـتـيـ بـهـ مـنـ خـيـرـاتـ ، لـكـنـ أـخـطـبـوـطـهـنـ هـوـ الـمـسـتـفـيدـ . هـمـ وـهـنـ عـزـاؤـهـمـ فـيـ الـلـيـلـ . حـسـبـ قـوـةـ الـلـيـلـ يـكـوـنـ زـوـاجـ أوـ طـلاقـ . أـفـكـارـهـمـ مـثـلـ ثـيـابـ عـرـقـهـمـ . أـيـتـهـاـ الـأـفـرـاحـ الـتـيـ لـاـ مـكـانـ لـهـاـ فـيـ تـلـكـ الـقـلـوـبـ الـجـلـيـدـيـةـ ، تـعـالـيـ نـتـدـفـاـ . لـنـحـلـمـ قـلـيـلاـ ، أـكـثـرـ مـنـ الـلـهـمـ .

حينـماـ يـعـلـأـنـيـ الـلـيـلـ بـيـنـ الـمـبـاحـ وـ الـمـحـرـمـ أـتـوـزـعـ . لـوـ أـنـيـ مـثـلـ زـهـرـةـ لـاـ تـتـنـاسـلـ ، لـوـ أـنـيـ أـخـلـقـ نـفـسـيـ مـنـ ذـاتـهـاـ ، لـوـ أـنـيـ أـعـطـيـ لـهـاـ مـصـيرـهـاـ ، لـوـ أـنـيـ أـلـغـيـ كـلـ مـاهـيـةـ ، لـكـنـ كـلـ عـاطـفـةـ هـيـ عـاـطـفـتـيـ . إـنـيـ سـلـيلـ الـعـوـاـطـفـ الـقـطـيـعـيـةـ . سـلـيلـ اـمـبـراـطـورـيـةـ الـخـواـسـ . سـلـيلـ

النملية والسمكية . تَقْرَدَ تَرَّ مصيرك . أهي كل رجولة وليدة طفولتها؟ أهي مرتبطة بها؟ أهي طفولتي في رجولتي؟ طفولتي مجروبة . من يقترب من رجولتي إذن؟ لكانني ولدت بين زهرتين لا أحب إحداهما .

ذهب بعضهن . جاء بعضهن . من أتعطر؟ لم تعد تأتي إلا من لَوْثَهَا لُعَاب آخر الليل . أتذكر الأخيرة . كانت مجذونة ، لكنها شربت من ينبوع الْهُدُوئِيَّة المسحور . على ظهرها ذيل طاووس من الوبر الأشقر . جاءت مع الغروب ، وذهبت مع الشروق ، وتركـت في يدي كومة من النُّورَيات ولم تعد . ربما لم أعرف كيف أقبل ساقها الجميلة . ربما كان ينقصنا الصمت الموحـي . ربما كان ينقصنا الكلام السخيف . ربما كان ينقصنا العنـف . ربما كان ينقصنا أن نتباعد: أن نتماس ولا نتواجه . ربما ما كان لنا أن نتلاقي أبداً ونتعارـف . ما أذكره هو أنها كانت مثل طفلة مدللة : لذتها هي أن تطعمـها في فمها أو تخبط الأشياء في وجهـك . كنت أفتقدـ هذا التـدليل . لقد عشت مع بـرابـرة اللـيل في الدـروب الضـيقـة ، والـحظـائر المـغـثـية ، والـخـمارـات المـرـيبة . إن زـهرـتي الأـثـيرـة تـذـبـل قـبـل لـسـها أو شـمـها . الأـسـرـار المـقـدـسـة لم تـعـد تـرـعـبـني : شـهـوـاتـي هي في السـرـ الذي أـعـيشـه . إنـها ، ربما ، جـريـمة لا يـعـاقـبـني عـلـيـها أحـد . لا أـسـطـيعـ إـفـنـاء شـهـوـاتـي في جـسـدي . المـوـعـدـ رـهـانـ زـائـفـ . لـنـ أـنـتـظـرـ من يـجـازـيـني . الأـرـزـ: الإـعـتـدـالـ ، الخـبـزـ: الصـبـرـ ، الحـبـ: الـلـحـ، لـكـ جـنـونـ الطـبـيـعـة لا المعـبدـ .

صرـتـ أـحـبـ، فـي حـيـ قالـ فـلـوريـ، لـلـيلـ بـيـتـيـ لـأـلـلـيلـ الـخـمـارـاتـ، صـبـاحـ الـجـبـلـ وـالـبـحـرـ لـأـصـبـاحـ الشـوـارـعـ الـلـاهـثـةـ، وـالـمـقـاهـيـ الـتـيـ تـتـظـرـ أولـ الـمـسـتـهـلـكـينـ . إنـ الصـدـأـ يـرـعـبـنيـ .

لا يـنـقـصـ هـذـاـ اللـيلـ الـمـشـجـرـ، الـمـعـشـوـشـبـ، إـلـأـذـئـابـ الـبـرـارـيـ فـيـ تـنـادـيـهـاـ. عـرـفـتـ هـايـنـرـيـشـ هـايـنـيـ قـبـلـ أـعـرـفـ رـامـبـوـ، فـرـلـينـ، نـرـفـالـ،

بودلير، شيللي، كيتس وبيرون . عرفت "أنا أحب، إذن فأنا أحيا" ، عند هايني ، قبل أن أعرف "أنا أفك، إذن فأنا موجود" ، عند ديكارت . ثم جاء سارتر فأيقظ في مفهوما آخر : "أنا ما هو أنا، وليس أنا ما هو أنا . "

لي دائماً موعد صارم لتمزيق ما كتبت. اعترافات روسو علمتني أن أجد عزاء في امتلاك الأشياء الصغيرة التي يهملها الآخرون. لكن انحلال الروح، في الجسد، كان مسي المرضي، الغلاب.

طهرت بالنار آخر ما كتبت في فال فلوري وعدت إلى غرفتي على سطح فندق لا بالاتا LA PLATA لأغوص في تلوث المدينة. بدأت أبيع كل يوم مجموعة من الكتب بأي ثمن وأسكر . أخذت لنفسي إجازة مرض . لم يبق عندي سوى "أوراق جديدة FOLLAS: لروساليا دي كاسترو ROSALIA DE CASTRO وديوان المعتمد بن عباد.

ذات ليلة أعلنت إفلاسي : الجندي والمعنوي ينهاران . كنت في مقهى براسورى دوفرانس . لست أدرى لماذا كنت أصرخ لاعنة الفراعنة . هددت الحاني بكسر واجهة الزجاجات إذا هو لم يناد على رجال المطافئ ، لكنهم جاءوا . شربت آخر كأس قبل أن أصبحهم . سمعت الحاني يقول للنادل :

- مسكين، لقد جنته الكتب .

-رأيته ذات ليلة نائما فوق عتبة قبالة حانة مونوكيل متوسداً كتبه . الله يكون في عونه .

18

العنوان

في الحجرة خمسة أسرة . في الليل ، من بعيد ، نباح ونقيق .
أقرأ حياة فان خوخ . بدأ بالحلم وانتهى باليأس . في الجنون لا
أرض غير السماء الوهمية تعلم فيها كيف نطير بأجنحة مقصوصة .
الهدوء شامل . فجأة ببدأ اللغط يعلو ويقترب من حجرتنا . هزة
أرضية . هكذا قالوا . لم أشعر بشيء . ربما غفوت حينما حدثت .
دخل مرضى ، من الحجرات الأخرى ، حجرتنا . استيقظ رفاق
حجرتنا تباعا ، كل حديث عن الله ، والدين ، والکوارث الطبيعية
يتزعمه يوسف حجرتنا في التفسير والتأويل . يحفظ القرآن
والحديث . هو أيضا يقولون عنه إن القراءات السبع هي التي
خبلته . قال :

- "إنما يخشى الله من عباده العلماء . " الموت هو الحق الأكبر .

قال منصور :

- يوم فوق الأرض خير من ألف يوم تحت الأرض . ألف عام من الحياة حتى يلعنها الإنسان .

قال عمر :

- كفانا من أخبار الأولين والترهات . هاتوا الخبر ، والماء ، والسجائر .

لأحد أعطاه شيئاً فلعن يقطتنا وغطى وجهه بالبطانية . قال يوسف :

- الناس عصاة مثل آبائهم وأجدادهم . الألم هو العدالة المنصفة . ليس أسعد الناس أقربهم إلى الله ، وأشقاهم أبعدهم عن الله .

كان شاب لا يكف عن الصراخ :

- اقطعوا يدي ، هاهما ، اقطعوا هما .

قال يوسف :

- الزمن هو الهلاك . زوروا الأحياء بنفس الزهور التي تزورون بها الأموات . إن زهور الأفراح هي نفسها زهور الأحزان . لقد صارت قلوب الناس مثل الفراشات حول الزهور الذابلة .

عندما نخرج إلى الساحة المشوشة يعني لنا أبراهم أغنيته :

في الأرض وفي السماء يحيا الحب

في الوطن وفي المنفى يحيا الحب

في السجون وفي المعابد يحيا الحب

في الأكواخ وفي القصور يحيا الحب

في الحواري وفي المقابر يحيا الحب

في البيوت وفي المستشفيات يحيا الحب

في السلم وفي الحرب يحيا الحب

كان منصور جالساً إلى جانبي يشم نبتة بجمال طفولي :

- ليس سهلاً أن يجنّ الإنسان ، وصعب أن يعقل حتى لا يجنّ .

قال يوسف :

- في عقول الناس أثقال ، وأجسادهم حميرها . لقدرأيت حملا يشعل عربة حماره بكيس تلو الكيس حتى انهارت العربية وانهار الحمار . كان يريد أن يقتصد في العودة إلى الشحن . خطوة، إنها خطوة، لكن من يستطيع أن يخطوها . إن كل إنسان يتخيّل أمامه هاوية وهمية . نسقط قبل أن نخطو . ما أطول الأشجار ! ما أقصر الإنسان ! إن سرّ العمر في سرّ النمو .

عدنا إلى حجرتنا بعد أن أخذنا حصتنا من الشمس ، ومن الهواء النقي ، ومن النظر إلى السماء . دخل أبراهم . لا ينشرح إلا إذا أعطاه أحدنا شيئاً يأكله . أعطيته كسرة خبز ، وزيتونا . إنه لا يشعّ . أنا أيضاً أستلذ هذه الفاكهة المقدسة . أبراهم يلعن أكثر مما يضيق . لا يكاد يضيق . إنه طويل ، بدین . في الليل يتناوبون عليه . لا يشكوا إلا إذا اغتصبه أحد بالضرب . يتقاتلون معه عندما يأتون بكلبة المستشفى الصغيرة و يجعلونها تتصّله أسفله المطلي بشيء من الأدام . سأله منصور :

- ما اسم حبيبتك يا أبراهم ؟
كثيراً ما يتحدث عنها دون أن يسأله أحد .

- استر . ESTHER

- كيف كانت عينها ؟

- من أجمل العيون

- أما زالت جميلتين ؟

- نعم .

- تكذب يا أبراهم . إن الزمن يعمي . أما زلت تحبها ؟

- نعم .

- تكذب يا أبراهم . الحب أيضاً يموت . إنها مع رجل آخر أو هي ماتت .

قال يوسف ملاطفاً لحيته :

- الإنسان وحيداً قديس، ومع امرأة شيطان . من يحصي أيامه هو كمن يحصي نبضات قلبه ، ومن يتحسن على زمان جماله هو كمن يقود سيارة ملتفتاً إلى الخلف . إن أجمل ما في العالم يتدرّم ويتلاشى . هذه هي الحقيقة التي سمعتها من أبكم . يا حكيم الشفاء لماذا أنت مصاب بالبرص . . . ؟ يا طبيب العيون ، لماذا أنت أعمش . . . ؟

بين جناح وجناح هناك طiran .

نقلوني إلى جناح آخر خاص بالموظفين وذوي الإمتياز الاجتماعي بعدما فرغت حجرة . بعض المرضى يتسلّلون من القاعات إلى هذا الجناح الهدىء . بدأت بعض حاجياتي تختفي عندما أكون غائباً : كل ما يؤكل ويشرب ويدخن يختفي ، كله أو بعضه . حتى زجاجة المريتني اختفت من حقيبتي . كان يسمح لي بالخروج من المستشفى فأذهب إلى المدينة لشراء ما أحتاجه . الكتب ، والمجلات ، والصحف لا يمسها أحد . ذات مرة فاجأت مريضاً يلتهم طعامي الخاص الذي يجلب لي من خارج المستشفى فقال لي :

- تعال تأكل معي ، إنه لذيد .

شكّرته وتركته يتم وجنته الشهية : دجاج بلدي بالبصل والزيت . تركته يأكل حتى العقبة (DESSERT) : موزة وبرتقالة : وبعدها طلب سيجارة .

الدمناتي هو أقوى مريض في المستشفى . منذ أكثر من عشر سنوات وهو هنا . كان يعمل في سيرك ألماني حاملاً في عرضه البهلواني ستة أشخاص فوق جسمه ، لكنه ليس هو الأقدم هنا في المستشفى . إن شامة أقدم منه : خمس عشرة سنة . حبت في المستشفى ثلاث مرات . لا أحد يعرف مع من . عندما تزورها أختها تقابلها باللعنات باصقة عليها ، رافضة الكلام معها . أعيد المزمizi ،

هذا الصباح ، إلى المستشفى مغضوب الرأس ، وفي وجهه جروح . إنه يدخل ويعبر متى شاء . أكثر من خمس سنوات وهو يستشفى . ليس عنينا أو عدوانيا مع الناس . إن جنونه العنيف مع الأشياء المنكسرة ، أما الحيوانات فهي عزيزته . هو الذي يعني بكلبة المستشفى ، بغضها ، وإطعامها ، تلطيفها وإعابها .

عندما يقضى أيامه في المدينة ويميل منها ينطح إحدى الواجهات الزجاجية الفاخرة . وحينما يبلغ متنه هياجه ويأسه يضيق قطع الزجاج ، وشرفات الحلاقة ، وسيمومت بهذا المضيق عندما بلعه . في هذه الحالة يكون قد شرب الخمر ، ودخن الكيف ، وتناول المكبات . في تصرفاته يعكس جميع حالات عالمه على الآخرين . إنه لا يعيش مأساته وحده كمعظم المرضى هنا الذين صنعوا لأنفسهم عالهم الخاص الذي يتأملون فيه وحذهم . ما أشد قسوتهم على أنفسهم ! المزبزي يعتبر المستشفى مسكنه الحقيقي . لا يزوره أحد . له من الرفقاء هنا أكثر مما له في الخارج . هناك مريض حمال ، في محطة القطار ، لا يدخل المستشفى إلا في الشتاء ، لأنه يكون في شبه بطالة . هو أيضا لا أحد يزوره .

من أجل وضع حد لما يختفي من أشيائي جعلت الدمناتي حراساً على حجرتي . يجلس قدام الباب متصفحا مجلاتي ، وصحفي ، مدخنا سجائره التي يلفها بنفسه . أشتري له علبة كل يومين أو ثلاثة وأعطي له بعضها من طعامي . أحيانا يأخذ كتابا ويتظاهر أنه يقرأ صفحة صفحة ، متمتما ، رغم أنه لا يعرف حرفا واحدا . طلب مني يوما أن أقرأ له جهرا . وبعد فقرات أو قفني :

- أنا أيضا كنت أقرأ هكذا عندما كنت في السيد (الكتاب) عندما تعوده أمها البائسة مرة كل أسبوع أو أسبوعين يحتفل بعيد ميلاده معها . يجلس على ركبتيها كأنه طفلها الصغير ويغمر جبينها ، ورأسها ، ويديها باللثمات . يعود إلى مقعده لحظة أو

لحظات ثم يعيد الكرة . إذا مر أحد المرضى الجدد وأطالت النظر إليهما يكون عقابه لكتمة قوية على وجهه . غالباً ما تسقطه ، اللكتمة المتعطشة ، في إغماء . المرضى القدماء يحدرون من هذه الغيرة المجنونة . يكون عقاب الدمناتي يوماً أو يومين حبساً منفرداً في جناح الخطرين . منذ دخلت المستشفى أنقذته مرتين : عشرة دراهم في كل حبس لرئيس المرضى .

حتى نوع من الدعاارة يمكن مع بعض المريضات ، بالدرارهم أو بما تحتاجه من لا يكاد يعودها أحد . لا يخلو المستشفى من عاهرة محترفة أو أكثر . في ليلة جن الدمناتي بحراسة المراحيض . أول مرة يفعلها . يمنع المرضى من دخولها بلكتماته القوية . الحراس وممرض الدوام الليليان في غياب داخل المستشفى أو خارجه : نائمان أو يلعبان الورق . في الصباح تقيناً كل من لم يقو على شم الرائحة الكريهة في الثياب ، وفي الأفرشة ، وجنبات المستشفى . هذه المرة تلقى الدمناتي شحنة من الصدمات الكهربائية لتسكين هياجده ، وحبساً منفرداً يومين . في اليوم الثالث خلصته منه ، كالعادة ، عشرة دراهم . إن هذا التزوان العصابي لا يحدث له إلا على فترات متباينة .

نزلت من مجلة البلاي بوي صور الفتيات العاريات وزينت بها حجرتي . قبالي شباك صغير يطل على رحبة مشوبة تتزره فيها المريضات في فترات الإستراحة . يثرثرن جماعات أو مشن مشن ، أو في انفراد . يتشطون ، يتفالين (1) وإن لم يكن فيهن قمل . إنهن مثل القرود في بعض حركاتهن . عندما يحتمل النقاش بينهن يتکاشفن عوراتهن ، يتتقابضن ويتجادبن الشعر ، ويتحامشن ويترافسن . إذا كان العراك بين الثنين فإن الآخريات لا يتدخلن لفرقهما ، لكن إذا لم تأت الحارسة في الوقت المناسب فإن الإشتباك قد يمتد إلى الآخريات

(1) يقليل بعضهن البعض

بدافع عدوى الهياج . خلال الأشهر الأربعة التي قضيتها في المستشفى رأيت مراراً مشاهد العنف بينهن من أجل أشياء تافهة : طلب مشط ، تزاحم على مكان معين ، أو مجرد نظرة متبادلة . «أشعندهك كتشوفي في ؟! » واحدة منهن تنزوبي دائماً وحيدة . تتعرى من كل ثيابها وتمشط شعرها في شرود . تأتي لابسة خجولاً وتطلب مني ، من خلال الشباك ، سيجارة . أعطيها اثنتين أو ثلاثة حتى لا تعود . لا أريد أن أحقرها من عريها ، وحلمتها ، وشم زهرتها ، التي لا أعرف من أين تأتي بها .

في الليل يكون للحياة شكل آخر في المستشفى . فئة من المرضى لا تكاد تنام . يحدث للبتول أن تجيء عندي ليلاً متحبة أو مجذونة بالفرح . تجيء في منامتها الشفافة . قصيرة ومكتنزة قليلاً . شعرها مقصوص . وجهها غلامي . بشرتها قمحية . تعاني من عصاب العقم . تخشى أن تخجن . " أنا هنا ، لكن ليس هذا مكاني ، " هكذا تقول بحسرة . تشرب وتدخن بلذة لتسكين توترها . عندي لها دائماً كأس أو كأسان وسجائر ، . خلعت ذات ليلة ثيابها وقلدت صورة فتاة عارية على الجدار في وضعها المغرى .

- هل هذه أجمل مني ؟

- كلا ، لكنك لست مثلها ، وليس هي مثلك .

أضع لها موسيقى مرقصة تطلبها فترقص مداعبة جسدها الجميل في غنج هوسي . تخلع بعض ثيابها في دلع . تتنلوى في السرير مثل صل . تغازل وتغازل جسدها راقصة حتى يتعب منها الرقص فترتمي على الفراش ساكنة . يحدث لها أن تبقى حتى قبيل الصباح أو تغادر دون وداع . وجودها كله متعلق بطفل لا تستطيع أن تلده .

ذات صباح استدعاني الطبيب مونسراً إلى مكتبه :

- إن حالتك المرضية لا تقتضي البقاء هنا أكثر من أسبوع ، ويفتت تقريراً أربعة أشهر . لقد ارتحت بما فيه الكفاية . ليس عندي

هنا فندق ، ينبغي أن تعود إلى عملك .
كانت البتول قد رقصت وغنت بصوت عال ليلة أمس . جاء
ممرض الدوام والحارس الليليان وأعاداها إلى قاعتها . ممرض الدوام
أيضا يضاجعها . لقد بحثت عنها ذات ليلة فوجدها فوقها في مغاسل
الثياب . قال :
- عندما أنتهي فهي لك .
دستت له في يده عشرة دراهم ونبضه يتبايناً فوقها .

19

الجنة

جاءت سارة من العرائش إلى طنجة بعد ما زهد فيها الجنود الإسبانيون وبعدهم المغاربة . أمها يهودية تزوجها إسباني ، لكنه لم تخل عن دينها وإن لم تكن تمارس شعائره . شباب أمها لم يخل ، أيضا ، من طيش وزنى . فندق أركاديا هو كل ثروة سارة . باعت أساورها ، ونحواتها ، وسلسلتها الذهبية ، لتشتري رسمه التجاري . عوَّضت حليةها بآخر زائف .

يجاورني هينينج سكرام HENNING SKRAM كلاما يترك بابه منفرجا ، أنا أنتظر حظي في امرأة ، وهو في رجل . إنها الرغبة المفاجئة التي قد يوجد بها ، على أحدنا ، ليل المر . إنه الليل : ليل طنجة .

هو يقرأ المسرح الكلاسيكي وأنا أفترس أي كتاب . ما أكثر ما أعاد علي أدواراً كان يمثلها ، في الدانمارك ، منذ أكثر من عشرين سنة .

لا أفهم كلمة واحدة، لكتي أن فعل لصوته وتشخيصه . ذات ليلة ركع ، في دور ، ولم يقم إلا داماً .

إذا خاب انتظارنا ننضم في غرفتي أو في غرفته . نتقاسم باطية نبيذ . عاطفته جد رهيبة . في الأيام الصاداء يحتفل بعرية الكامل أمام المرأة . في عيد ميلاده الخمسين تهوسَ بين الضحك والبكاء . شرب حتى فقد حذاءه . حملناه مُغمِّماً مثل طفل : "دعوني ، دعوني وحدني يا أولاد الزانيات" .

إنه عيالٌ على حالته . تركت له معاشًا شهريًا يستطيع أن يعيش به في طنجة أو في مثيلتها حتى مماته . الموت يرعبه . وجدته يبكي في غرفته لأن جنازة مرت قدام الفندق . (في نهاية عام ستين فاجأه تزيف مخي في مليلية فمات ودفن هناك) .
قلت له :

- لكي نقهر فكرة الموت لا ينبغي لنا أن نتصور أنفسنا ميتين . إنه مصيرك مع نفسك . لا يخص أحدًا ولا تنتظر من يؤاسيك . اعتبر نفسك خالدًا ولو في الوهم . لا يقهر الموت إلا حب الحياة .
خف حزنه ولطمئني بسخريته :

- إنك تعتبرني ساذجا . هل تعتقد أننا في المسرح ؟
أيضاً لا يعرف هيئيّنـجـ كـيفـ يـمـرضـ . أقلـ ألمـ يـجـعـلـهـ يـرـتجـفـ .
نتغـدـىـ وـنـعـشـ خـمـسـةـ أـوـ سـتـةـ مـنـ الـمـقـيمـينـ الدـائـمـينـ فـيـ المـطـعـمـ
الـصـغـيرـ -ـ المـطـبـخـ . طـبـاخـتـنـاـ لـلـاصـافـيـةـ تـخـدـمـنـاـ . حـيـنـ يـرـوـقـ مـزـاجـ سـارـةـ
تـخـدـمـنـاـ بـنـفـسـهـاـ وـتـشـارـكـنـاـ مـائـدـتـنـاـ . أـمـهـاـ لـوـلـاـ (ـاسـمـهاـ الحـقـيقـيـ حـسـيـبةـ)
لـاـ تـشـارـكـنـاـ أـبـدـاـ فـيـ شـيـءـ . تـظـلـ قـابـعـةـ فـيـ حـجـرـتـهاـ الـمـظـلـمـةـ . أـحـيـانـاـ
تـلـعـبـ الـورـقـ وـحـدـهـ . لـاـ يـكـادـ يـزـورـهـ أـحـدـ .

انضاف إلى مائتنا شخص أراه في مقاهي السوق الداخلي . لا أعرف ماذا يعمل . يختال في مشيته . ربما ليُوحِي لمن يراه أنه شخص مهم . إنه صديق عشيق سارة الأسود بوتامي : سليل الكوريلات ،

بجسده الضخم، ووجهه الشبيه بنصف بطيخة حمراء، وجبهته الضيقه مثل زنجانتروپو (1)، وعينيه كأنهما حبّات عنبر سوداوان. لا يقيم، هذا الوافد الجديد، في الفندق. مضت أيام دون أن يعرف كيف ينسجم معنا. ننكت ونضحك وهو متوجه. فكرت: أهو ينتظر منا أن نسلمه؟ ذات ليلة انتهينا من العشاء، ونحن نشرب، فأخذنا تنافس في النكات. تعالت قهقهاتنا إلى حد الدموع فإذا به يتصلب ويخرج غاضبا. طُرْ ! ماذا حدث لهذا الكونغورو؟

في اليوم التالي كان أول من دخل المطعم. وجده يتصفح مجلة فرنسية وأمامه شيء ملفوظ في ورقة جريدة فرنسية. حيته وجلست. حياني بهزة من رأسه ثم أطرق من جديد. فكرت: يمثل دور المفكر والمهتم.

طُرْ ! كدت أنفجرا ضاحكا. للأصافية مضطربة على غير عادتها. باب المطعم يواجه حجرة لولا. تنام هناك سارة معها عندما لا يبيت كوريلاتها في الفندق. بانت واستقدمتني باشارة يدها، شيء غير عادي يحدث هذه الليلة. أدخلتني إلى الحجرة.

- ماذا فعلتم له؟ إنه شرطي سري وصديق بوتامي .
- وبعد!

- إن ذلك الشيء الملفوف في ورقة صحيفية هو مسدسه. لقد رأته للأصافية يخرجه ويعسحه.

- لا أفهم شيئاً. وبعد، فهل جاء ليهددنـا؟
- كلا، لكن لا تغضبوه، أرجو أن يكون عشاوركم هادئا حتى تعتادوا على حضوره.

- أو يعتاد هو على حضورنا
- أرجو أن تفهم ما أقول: لا أريد مشاكل.
سارة هي من النوع الذي يقطربول أمام السلطة.

(1) ZINJANTROPO

الحارس العجوز، دون خوان، جالس في رُكن عند مدخل الباب. يعجبني تردده: ليس لديه ما يربح ولا ما يخسر. أشار بإبهامه إلى الخلف مُدوّراً سبابته حول صدغه. إنه دائمًا ينتقدها، ويخلق نكتة جديدة حولها.

قال مرة بسخرية المرحة، وهو يتعشى معنا:
- كأن الدجاج لا أرجل له. إنه دائمًا يطير!

في صحته جناح وعنق. أكثر من عشر سنوات وهو يعمل عندها. حول المائدة: بوزيان، أستاذ الانجليزية، وهينينج سكرام، والشرطي وأنا. دون خوان لا يتعشى معنا عندما يكون مهموماً. يتضرر حتى يفرغ المطعم. سارة تطل علينا وتختفي. مضطربة. تتضرر ما سيحدث. للاصافية أكثر اضطراباً منها. لم تر أبداً مسدساً عارياً في يد إنسان. "كان يمسحه مثل نظارة." هكذا قالت لي. لفنا صمت غامض على غير عادتنا. هينينج لا يعلم شيئاً عن المسدس الملفوف. سارة تصب لنا النبيذ في كؤوسنا ثم تعيد الزجاجة إلى المطبخ. طلب لنا هينينج زجاجة أخرى لتبييض صممتنا البارد. انه هو أيضاً يشك في شيء ما يحدث هذه الليلة. واجم. ربما يفكر الآن في عشيقه بيسأس: تعجافياً منذ أيام. جبه في حزنه أكثر منه في فرحة. صب للشرطي راعش اليد، ثم لنا. تماست كؤوسنا في رنين. خف اضطراب اللاصافية وسارة، التي أطلت علينا في بشاشة مُفترضة. لست أدرى لماذا يأتيني شبهها بالنعامة! لأنّ عنقها طويل؟ ووجهها الذي يشبه قلباً؟ طلب الشرطي زجاجة أخرى قبل أن تنتهي الحاضرة. يريد أن يتلطف. سحب، في خلسة، ملفوفه ووضعه في جيب كبوطه.

بوزيان خلق لنفسه أيضاً قصة حب مع تلميذة. غداً دوره في الدعوة. لم يتكلم معها أبداً. حب النظرة من بعيد. مرتين في الأسبوع، يبدأ درسه في العاشرة. يسافر، في هذين اليومين، إلى تطوان، في السادسة صباحاً، ليعود بعد ثلات ساعات. يتناول

فطوره في مقهى أفينيدا دي إسبانيا، الذي تمرّ أمامه معشوقته. بلذة يراها ولا تراه. إذا هو عاد فاتراً وشارداً فإننا ندرك أنه لم تمرّ في هذين اليومين، مرت أو لم تمرّ، يستضيفنا إلى زجاجة أو اثنتين، أثناء العشاء. لا يشرب إلا في المناسبات. لا يعرف كيف يشرب وحده: شرب الخمر حالة اجتماعية كما يقول.

حوالي الواحدة بعد الزوال كان هناك سُلَّمٌ، ورجال السلطة، والمطافئ، وجمهرة متهمسة. لقد كسروا النافذة لفتح الباب من الداخل. وجه سارة شاحب ورائع. الهلع شوّه ملامحها. إنه استغراب تام من الجميع، الذين عرفوها هنا، أن تتحضر شاستين. لقد دعانا جدّ مسرورة. تعشت معنا جيداً وشربت حتى أحمر خداها. أذكر بسمتها الأخيرة وهي صاعدة في الدرج إلى غرفتها، أيام وكلّ طعامها خبز مغموس في النبيذ. تُقضى معظم أوقاتها تقرأ. تأخرت الحوالة، التي تستلمها شهرياً، أكثر من اللازم. أعيادها، هذه المرة، انتظار مساعدة والديها لها.

دعّوتُها للعشاء معنا عندما علمت بضائقتها. لا أعتقد أنها انتحرت بسبب الخصاص وحده. لا بدّ أن هناك تراكماً من الانحطامات. ربما كان هناك شقاء أعمق، لكن ابتلاء أنبوب من المسكنات بكامله كان أقوى. ربما فرحتها معنا، غير المنتظر، قد ساهم، أيضاً، في انهيارها!

بعد نقل الجثة وانصراف السلطة غزت سارة نوبة من البكاء حادة. شاركتها في شرب الكونياك لتخفيف انفعالها. تحدثنا عن المقدور، ومصائر الناس، ناسيّاً عملي المدرسي. سكرنا وضحكتنا. لا أذكر كيف صعدت إلى غرفتي لأنام بكامل ثيابي. أيقظتني دقّ متواصل على الباب للعشاء. المطعم كان خالياً من المرح الذي نخلقه فيه في معظم الليالي.

في عطلة مارس المدرسية تضاعف همُ بوزيان. كان يذهب إلى

تطوان في نفس اليومين المعتادين، ويتناول فطوره في نفس المقهى، ويعود في نفس الساعة المعتادة. تلميذته غائبة، لكن نظرته حاضرة. أخذته إلى دار برغوثة. كان عندها ثلاثة. تركته يختار. دخلت أنا مع فتاة حولاء استعدت معها بعضاً من ذكرياتي عن أحياط طوان. سأله في حانة دينز بار عن التي دخل معها. " أنها الطيفة، لكنني لم أضاجعها، لأن قصة احترافها أحزنتني. تعول أمها، وطفلتها في عامها الأول. "

أنا أيضاً أكره هذا النوع من العاهرات اللائي يقحمن همومهن في الفراش. انهن العجز بعينه.

ليس بوتامي هو عشيق سارة الوحيد، لكنه هو الدائم منذ سنوات. ان شبقها يستقدم نِيَاكين (من النيك) شُبّاناً من المدينة وغيرها. بعضهم لفقره وكبته، وبعضهم افتناناً بالأجنبيات، ولوكن هرمات مثل سارة.

هذا اليوم جاءها شابها الأثير من شفشاون. أقل من ابنها كارلوس في ثلاثينه. من عادة بوتامي أن يسهر معها يوم السبت، وقد يستمر سهرهما حتى آخر ليلة الأحد، وبقية الأيام لزوجته وبناته الثلاث، لكن اليوم هو الاثنين. ربما دله أحد على هذا المنافس، الساذج، فجاء ليشمّ منافسته له. سارة في أزهى زينتها، وأعقب عطرها. الشاب يتعرشى معنا، انه أقرب إلى الاتهام، والشره، منه إلى الشهية. لا يشرب ولا يدخن. ولكي تعلّقه جيداً وتكرمه أمامنا يصير عشاونا وليمة أكلاؤ شراباً عندما يجيء. لكنها تُعوّض ذلك! قيل لي أنها غالباً ما رأوها تشتري لحم الحمار أو الحصان. قد يكون هذا صحيحاً، لأن شريحة اللحم تكون، أحياناً، مطاطية. لا يهمني أن أصدق. إقامتنا الكاملة عندها من أرخص الأثمان في السوق الداخلي. صعد بوتامي مع سارة إلى أحدي الغرف الشاغرة. سمعنا لغطاً وشتائم. مرّ بوتامي أمام باب المطعم غاضباً، مُلقياً نظرة احتقارٍ

على الشاب. دخلت سارة حجرة أمها. بانت بمنظاره قائمة تُخفي
كَدِمَتْها الطرية. إنها عنيدة، حازمة ومجدولة، لا تَنْهَزِم. كأن شيئاً لم
يحدث. إنها سيدة حريتها ورغباتها. هي هنا. يختص من يختص،
ويذهب من يذهب وهي سيدة نفسها. يغضبون ويذهبون، لكنهم
جميعاً يعودون. إنها سيدة السُّخاء، والمراح، والنِّكاح.

20

وفي السماء طيور دون أرجل

الظهيرة، في الصيف، تخنقني ملأً. لا ينقدني منها إلا البحر، لكنني تكاسلت عنه وفقدت لذة السباحة منذ سنوات. ليست هذه هي المتعة الأخيرة التي أبعدني عنها الشراب كل يوم: القراءة الجادة، الكتابة، وكتابة الرسائل إلى الأصدقاء، والتأمل، والحلم... حتى غفوة القيلولة عزفت عنها. ربما لأنني أستيقظ منها خاملًا في مثل هذا القيظ الخانق. عندي الآن خيارات: أن أذهب عند شارل لوشو فالبي، أو بياتريسي، أو بينيتوجرًا، BENITO GERRA الذي عاد من المكسيك، أو أنزل إلى أحدى حانات الشاطئ، لكن ثرثرة السكارى هناك، وتعتعتهم ستضيق انتشار هذه الحرارة. عند بينيتو الذي لم أره بعد.

استقبلني حافي القدمين مضمحة ترحيبه كعادته. لا يتضرر من يبهجه حتى في أكثر الأيام عوزا في انتظار الحوالة التي تبعثها له أمه

الثانية. تعانقنا بحرارة. أمسكتي من كتفي :

- لم تشيخ الخمرة بعد. مازالت في عونك.

- وأنت أيضا لم يهزُّك المسحوق الأبيض حتى الآن (1)

جبيه فضفاضة، مفتوحة الصدر. لم يسكن، هذه المرة، في منزل كبير: غرفة واحدة، في حومة بنشرقي، تطل على الشاطئ، وجزء من الميناء، وهضبة الشرف، ومتحطة القطار. بضعة كتب، وأوراق مبعثرة فوق الطيفور (الطبلية). أخرج بيرتين باردين من جفنة مغطاة بقطعة من الحشيش.

- هذه برادي (ثلاثي).

رائحة الهاش قوية. صحته جيدة. هكذا هو دائمًا كلما جاء، لكنه سبّير، كعادته، إذا هو عاد ليشمّ المسحوق الأبيض، ويدخن الحشيش، ويتناول المعجون ويشرب.

- وقاليري؟

- تكاتبت معها عندما كنت في لاس فيegas. تزوجت ولها طفلتان. تعيش مع زوجها في ساحل العاج. لأنّها كانت تطمح إلى أكثر من هذا. لقد تهرأت في الحب الهاوب منها بما فيه الكفاية.

- باتريسييا أيضا لها طفلة مع جيوثاني، لكنها لم تعد تعيش معه، وإن كانا يلتقيان.

- أعرف هذا. لقد أفطرنا معاً، هذا الصباح، في مقهى سترا. تأملت الأوراق فوق الطيفور.

- ماذا تكتب؟

- رواية. هذه أول تجربتي مع التشر. أعناني عسراً كبيراً في كتابة صفحة واحدة كل يوم. ربما كنت في حاجة إلى فتاة مجنونة يلمع

(1) الكركادين.

فوق جلدتها تَوْتُرِي . لا تُسْعِنُنِي الكتابة إلا عندما أتخاصل مع نفسي
وآخرين . فلما أكتب وأنا أمرح .

" كل عقل نشيط صادر عن روح منحطمة " كما تقول الفونسينا
سطورني (2) .

- وسلاما ، أين هي الآن ؟

- لا أدري . لا أعرف من أنكر الآخر في جلدنا القديم . لم أتم
عطلتي في لاس فيغاس لأنني التقيت هناك فتاة نسخة منها في الملامح
والتصيرفات . امتصاصت منها ثلاثة قصائد وهربت قبل أن أكراها
وأجهضها .

التقط أوراقا من فوق الطبلية ومدّها لي .

الزجلسون

يروق لي أن أتأمل عينيك .

تكادان أن تكونا برتقاليتين ،

وشعرك المسيل مثل الكاكاو اللامع .

يروق لي أن أتأمل وجهك الوضيء

حين يظهر ويختفي .

أغرقيني

حينما أخرج من حلم وأدخل في حلم .

ان شفتوك اللذيتين تفرضان حواجز

على فمي المحارب .

العراد هو سلاحي الأثير .

وأحب نفسي .

(2) CADA CEREBRO ACTIVO PROCEDE DE UN ALMA

QUEBRANTADA

وبعد!

النرجسيون يغرقون أجساماً أخرى،
وأرواحاً، بحنان.
أحبك نحو الأعلى ، ونحو الأسفل.
منذ عجلة البدء المبهمة ، صار محاصرا
جلدك من العصر الحجري.

يتموج متلائنا نحو المستقبل ، لكن روحي
القوية هي أبعد من الاتجاهات الأربع.
المعاد هنا.

أينما يروق لك ،
ربما في مغارة الفضاء المحكمة السرّ ، الكتيمة.
المعاد هنا.

ظمآنـة هي كيميائي المتـوحـدة .
المعاد أينما يرـوقـ لكـ .
ربما تفـوزـينـ بلـقـائـيـ .

علبة الـوقـيد

اليوم طاردتني النجوم .
رميت لها جلدي ... شعرى ...
عيني الرائعتين ، البنفسجيتين .
عيثاء .

لقد نقلتني معها ،
عبرت بي قارة من الثلوج .
أفرغـتـ نـفـسيـ .
أنا كلـيـ تـدـحرـ جـسـتـ نحوـ الأـرـيـافـ :

ظام.... نفاثات.... جمال...
من أخذني معه.
خباي في علبة الوقيد.
ومن أجل ذلك تشتعل أعواد الثواب،
كما يحكون.

١٤

يتساقط الثلج .
زرقاء تُمطر الغرفة ،
ونحن معاً
انسلخ عنّا اللحم .
لم يبقَ مِنَّا إِلَّا العظام ،
إِلَّا دخانَ الْعَضوَيْنِ صاعداً
في بطءِ حَلَزُونِي .
في الخارج ، تُمطر زرقاء
وفي الداخل ، بخوراً تُمطر .
ونحن شاحبان ، خالدان ، مُمْزقان ،
دائماً مُنْصَهراً في أثير النسوة المُتلاشية .

21

لوشفالیس

لا ينبغي لي أن أكون حيث يوجد الصيف. إنه يختنقني وقلما
يُهجنني. لا أكاد أقبض فيه على فكرة حتى أدوخ وتتبخر مثل الندى
المشحون في هواء الليل. كانت لي فيه، في عز شبابي، بعض المزايا
والماهيج. من اللطف أن لي رمل البحر الطري لا رمل الصحراء
الجاف، الصافع والمعمي. لا أتعلق بالأحلام إلا عندما يهز مني
طموحي، ولا أتذكر همومي إلا عندما أجلس لأكتب.

ووجده جالسا حزينا في رحبة مقهى سترال. بادرني :

- أحتاج إليك الآن. ستساعدني في مهمة.

لأول مرة أسمعه يستسعد بأحد هنا. العشية تقترب. نهض في
ثاقل وقال :

- عندما نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد!

أكتب الآن هذه المذكرات على نشيد السعادة في السنفونية

التابعة، والليلية الأولى لشوبان. سأترك للقارئ حرية مزجها في مخيلته.

غرفة لوشوفاليي حارة مثل فرن. زجاجة نبيذ وردي فوق الطاولة. لا يشرب الماء إلا عندما ينعدم النبيذ. الماء للجمال والضفادع، كما يقول ساخرا. ملألي كأساً: إنه دافئ وطعمه حامض، وتفوح منه رائحة الفلين. أشار إلى حقيبة بالية قرب السرير.

- أرجو ألا أزعجك إذا أنت حملتها لي إلى الشاطئ.

- إلى الشاطئ!

هل بدأ جنونه؟

- لا تستغرب! لكن لن أقول لك شيئاً عما فيها حتى ترى بنفسك.

يُقطعني، في السير، كلمات تخطيته. أبدأ لم أره متأنلاً ومتعباً كما هو اليوم. أنه دائماً ضيقاً "الآن إِ" يكاد ينهار، لكنه صامد. الحقيقة ليست ثقيلة. تساءلت عما يمكن أن يكون فيها! أشخاص يودّعون مساء طنجة الجميل، آخرون مازالوا متشبعين برمله الرطب. فتحت الحقيقة السحرية الشوفالية: قصص قصيرة قرأ بعضها عليّ منذ زمن. لم ينشرها قطّ، وركام صور لونها حائل، وأوسمة نالها في الحررين العالميتين. طلب مني أن أشعّل فيها النار داخل الحقيقة. نظرت إليه في أسى. ساحترم رغبته، هذا أكيد، لكنني أردت أن أنقذ صورة له كي أحفظ بها فامتنع:

- أرجو أن تلبي لي رغبتي. لا تناقشني في شيء عنها. سنأخذ أكثر من صورة معاً متى تشاء.

الأوراق الفحمية تتطاير وهو ينظر إلى الأفق الشفقي مُشرباً بلون زهور اللوز. ذكريات أكثر من ستين عاماً تتلاشى دون رحمة أو ندم. وجهه أسيان إلى حدّ البكاء. أحمرار وجهه يعكس مقاومة انفعاله

الشديد. لأول مرة أرى فيها ممثل هذه العدمية. قصصه التي كان قد قرأها عليّ أسلوبها ينعدم فيه الخيال الأدبي. أنها مجرد سرد أحداث مأساوية دون جمالية. كل شيء فيها مطبوع مسبقاً وجاهز. لا شك أنه لم يُنمِّ موهبته الأدبية بمشاعر العزلة، والقراءات التأملية. انه من هؤلاء الذين يسألون دائمًا أن كان ما يسمعونه أو يقرأونه حقيقياً أم لا. لكن تمرده القوي كان على الزيارة الأسبوعية للكنيسة، وحفلات أحياء ذكرى القديسين. لم يعد يستمد بهجة الحياة إلا من الماضي: العصر الجميل انتهى في نهاية الأربعينيات، رغم كوارث الحروب الكبيرة والصغرى. هذه هي حسرته. وبعد تقاعده من الجيش أخذ يمارس التطبيب بالایحاء الذاتي. كان مهتماً به منذ شبابه. اعتبرته نوعاً من الشعوذة، لكنني تراجعت عن رأيي عندما رأيته يعالج سارة أمامي. راح يلقنها جملات ترددتها معه، وهو يمر راحتيه على بطنها، ماسحاً وجعها، حتى أنهضها من فراش الأنين والألم. لقد كان لوسائله طبيباً في الأوجاع والأحزان فإذا هو اليوم أوجع وأحزن منا. عندما أصبحت بفقر الدم وصف لي "كفتة" (1) الحصان نيشة مع صفار البيض، والثوم، والبزر، والنبيذ. أدركت، من خلال تلميحاته، أننا لا يمكن لنا أن نعيش بالذكريات الخائنة أو المشكوك فيها. ثم هو لم يعدله من يورثها له. لقد تنكر لكل قريب له، بعدما قتلوه وهو حي.

حالة معاشه تأخرت أكثر من المعتاد هذه المرة. يزداد أنهياراً. ينظر منحنياً أكثر مما ينظر مستقيماً. هذا ليس من عادته. سمعته يتمتم:

– في بلاد المواعيد يموت الإنسان جوعاً.

لم أسأله عمما يقصد. فكرت، وأنا أفارقه: انه في الخامسة والسبعين. اذا قدر لي أن أعيش عمره ثُرَى أية متعة أو حسراً ستكون

(1) اللحم المفروم

لي في العيش! ان عبارته هذه استرجعتها كأنها مسـ. ولکي أقوى وأعزـي نفسي صرـت أقول: لن أشيخ سـينا: " عندما نشيخ نتمنـى أن يبدأ كل شيء من جديد! " ما قابلـت أحدـا في مثل عمره الأشـكـامـ من الزـمنـ الذي جـرـدهـ ما يـحـبـ، أو مرـرـ حـيـاتـهـ حتى النـخـاعـ. لكنـ لو شـوـفالـيـ هو أقلـ مـبـالـةـ بـسوـءـ حـظـهـ. صـرـتـ أـخـشـىـ نـهاـيـةـ حـيـاتـيـ من خـلـالـ حـيـاتـهـ. ما أـصـعـبـ أـلـاـ يـقـارـنـ الـأـنـسـانـ حـيـاتـهـ بـبعـضـ الـآـخـرـينـ.

مرـتـ ثـلـاثـةـ أـسـابـيعـ عـلـىـ تـأـخـيرـ حـوـالـةـ مـعـاشـهـ. القـطـرـةـ الصـامـاتـةـ، القـطـرـةـ التـيـ تـكـسـرـ الصـمـتـ. صـارـ طـعـامـهـ مـقـتـصـراـ عـلـىـ الـزـيـدـةـ، وـالـطـمـاطـمـ، وـالـبـصـلـ، وـالـلـيـمـونـ. أـشـرـكـهـ مـعـيـ كـلـ يـوـمـ، تـقـرـيـباـ، فـي زـجاـجـةـ نـبـيـذـ رـحـمـةـ بـهـ مـنـ المـاءـ الـذـيـ يـعـافـ شـرـبـهـ. نـظـمـ لـهـ المـرـكـزـ الثـقـافـيـ الـفـرـنـسـيـ الـقـاءـ مـحـاـضـرـةـ عـنـ الـعـلاـجـ بـالـيـحـاءـ الذـاتـيـ، لـكـنـ حـمـاسـهـ فـتـرـعـندـمـارـأـيـ حـوـالـيـ عـشـرـةـ أـشـخـاصـ فـيـ القـاعـةـ فـاـخـتـصـرـ المـوـضـوعـ إـلـىـ حـدـيـثـ دـامـ عـشـرـينـ دـقـيقـةـ. مـارـبـحـهـ مـنـ هـذـاـ اللـقـاءـ هـيـ الـخـمـسـمـائـةـ درـهمـ الـتـيـ أـعـطـيـتـ لـهـ مـكـافـأـةـ فـأـنـقـذـتـهـ مـنـ بـؤـسـهـ فـيـ اـنـتـظـارـ وـصـولـ حـوـالـةـ مـعـاشـهـ.

في تلك الأمسيـةـ كانـ كـرـيـماـ مـعـيـ فـيـ مـطـعـمـ الـفـنـدقـ الـذـيـ نـسـكـنـ فـيـ مـعـاـ: طـعـامـ وـشـرابـ، أحـادـيـثـ وـنـكـاتـ حتـىـ طـرـدـنـاـ تـعبـ اللـيلـ.

في العام المـاضـيـ خـابـ أـمـلـهـ أـيـضاـ عـنـدـمـاـ طـلـبـ، فـيـ مـقـهىـ زـاكـورـةـ، مـنـ العـازـفـةـ عـلـىـ الـبـيـانـوـ وـزـوجـهـ الـكـمـنـجـيـ أـنـ يـصـاحـبـاهـ فـيـ أـغـنـيـةـ مـنـ الـثـلـاثـيـنـاتـ. مـاـ أـنـ صـاحـ بـصـوـتـهـ القـويـ حتـىـ اـسـتـوـقـفـ كـلـ مـارـأـمـ المـقـهىـ فـأـوـقـفـهـ النـادـلـ بـلـطفـ لـأـنـ المـكـانـ لـيـسـ مـلـائـمـاـ لـلـغـنـاءـ. إـنـ وـاقـعـ لـوـشـوـفالـيـ قدـ تـخلـىـ عـنـهـ لـأـنـهـ يـعـيـشـ فـيـ عـالـمـ غـرـيبـ عـنـهـ. انهـ أـشـبـهـ بـمـنـ يـتـعـلـقـ بـغـصـنـ وـتـحـتـهـ هـاوـيـةـ: عـبـءـ ثـقـيلـ وـحـزـينـ. وجـلـنيـ صـبـاحـاـ، فـيـ مـقـهىـ سـترـالـ، مـتـلـذـذاـ بـكـسـلـيـ. لـقـدـ زـايـلـتـهـ كـآـبـتـهـ. دـعـانـيـ إـلـىـ صـحـبـتـهـ لـزـيـارـةـ صـدـيقـهـ جـورـجـ فـيـ ضـاحـيـةـ عـوـامـةـ. لـيـسـ لـذـيـ مـاـ أـفـعـلـهـ، فـيـ هـذـاـ الـيـومـ الصـاهـدـ. أـحـسـنـيـ فـائـضاـ. اـشـتـرـىـ أـرـبـاـ دـجـيـناـ،

ونبيدا، وعلبة فطر، وخبز شعير. ركينا الحافلة العمومية. في المحطة النهائية كان علينا أن نمشي حوالي كيلومتر لنصل إلى الغرفة الصغيرة. الطريق لاهبة. حية تعبر في حجم نصف متر. توقف قائلًا وكأنه يخاطبها:

تعابير لوشوفاليي. اذا أزمتُ فلستُ ادرى أية شيخوخة تنتظرنِي.
أكيد أنتي لن أحرق حقيبة ذكرياتي على الشاطئ. انتي لم أسمح،
حتى الآن، لأية عاطفة أن تخونني. لقد عشت دائمًا في حالة
طوارئ. ما أحببت إلا ما كان هارباً: ان الحب، مثلاً، لا يسحرني الا
اذا كان أسطوريًا:

أتحدث عنه دون أن ألمسه أو أعانقه. وأكثر الفتیات اللواتی سحرتني هن هؤلاء الهرمافروديات. ربما نزعة لواط دفينة ما زالت متحفزة في أعماقي. ان الغلامیات أكثر ايجابية وجاذبية من الانثیات (المارلينیات والشادیات). ان سلبیة أمثال الآخیرات لا توحی میواعthen إلا باغتصابهن.

لقد بحثت عن لعبة الحياة ورمزها لاحقيقتها: عن الغامض واللغز، لا الوضوح والبساطة، عن المجهول لا المعلوم، عن السراب لا الماء. سقطت قربي اجاصة جدّاً ناضجة. تمرغت منقلباً وأخذتها. أكلتها مفكراً في اسحاق نيوتن، وهنري ثورو، وروبرت فروست. فكّرت أيضاً في اليهودي الذي ألقى بنفسه من الطابق السادس فسقط على عامل مغربيّ، في تطوان، حيث أدخل له عنقه ورأسه في صدره. خارت البقرة وهي تَرُوث والحسون يغني. لقد نقلتني ظلال هذه الشجرة إلى ظلال طفولتي الوارفة: عين القطيوط، عين الحياني، وعين الخباز. شربت من عيون هذه الأحياء ماء البؤس العكر -الزلزال.

لم يسبق لي أبداً أن استلقى مثل هذا الاستلقاء المشرق، المشجر. من قبل كنت أجري تحت الأشجار ولا أتوقف تحت واحدة إلا لأقطف ثمارها، أما الآن فأنا أستظل وأأكل من نضجها. إن الزمن لم يعد يوزعني. صرت أحبسه أينما أشاء. إنني مدین الآن لصديقي لو شوفاليي. لو لا ما كنت أنتشي بهذا الموج من الذكريات التي تغمرني في متنهى نعومتها، ولينها، وعمقها. تعبي يسيل مني في

هذا الاسترخاء الشامل والبهيج الذي يُسلمني الى غفوة لذيدة.
جاءني جورج بقدح من الفخار مملوء بالنبيذ. انه عتيق في كل شيء
هذا الجورج اللطيف ، الناعم في صوته وحركاته. بدأت أشفف مع
كل رشفة من القدح والسيجارة. أشرقت مراحل حياتي القديم منها
والحديث ، الخبيث والطيب ، المؤلم والمفرح : انها ومضمة متشابكة
مثل أغصان شجرة الاجاص هذه. بدأ نسيم يهب محملا بالابتزاز
المنعش . ناداني لوشوفاليي للأكل . يحب الأرانب المطبوخة بالخمر
والفطر. أستلذ دائمًا طبخه. انه أصيل في ب Daoته .

22

باتريسيا

جارتي لا أبالي بها لأنها تافهة. لا جنس دون طقوس. أكتب هذه المذكرات في حانة جديدة مسوخة. إنها من الحانات الجديدة التي أفحمت على المدينة. هل جاء ليل وداعك للليل طنجة؟

- أبداً لا. ان ليل طنجة هو ليلي. لا يردعها من عاش فيها حتى تأذن له سُرُّتها. كم عدت اليها مهما كان تناسلها وما أكثر ما سافرت وعدت من نصف طريقي اليها! الحقيقة هي المستقبل. لا أحد شاهد على ما أقول. اني وحيد ليلي. لا أحد يغزو وحدتي.

- بوركوجودا!! بوركوجودا!!
PORKO JIUDA
أنا ستاسيا تبكي. من تسب؟ من يمكن أن تسبه هكذا في حضوره؟ الصهد خائق. أنا ستاسيا عارية حتى النطاق. ما أجمل عري الطفولة! أفكر في باقة ورد حمراء محروسة بزهور بيضاء مُشربة بحمرة لم تفتر بعد لُسْيَنَاتِها . كم ثُفر حنا وثُشقينا الطفولة! لا تدوم

الآن في أحلامنا. ماذا يأتي بعدها سوى أن نمارس جنون الليل! باتريسييا جالسة على الحصیر. جبّتها الفضفاضة مراكشية. تُفتت سجارة شقراء لتصنع صاروخها كما تسميه. أهو إفشاء أم إثبات أم تحمل أم نشوء ما تصنعه؟ ربما احتجاج! ربما حبوطاً! ربما لا شيء! ملء فراغ! نزوة! يا للليالي الطويلة في ملذاتها وكيتْ جاريٍ يعزف. أمطار توحى لك بالطفوان ولا تغرقك. لا أحب تقليد نفسي. لقد ولدت باتريسييا للتبعج الآخرين، لكن كم سألتها! من هؤلاء الآخرون؟ تنظر إليّ ولا تُجيب. تبتسم! تصنع صاروخها خافرة عينيها. جمال كل النساء يجتمع فيها. سكينتها تجعل من كاره النساء محباً، ومن العينين فحلاً. بسذاجة تقول: الآخرون أيضاً يوجدون. أزداد حباً لنفسي أمامها. رقص، رقص لكي يجعل العالم. رغم أن باتريسييا شاعرة فاشلة فإنها توحى بأجمل الشعر لمن يعشق حضورها. الفنانون لا يموتون أبداً في الاسطبل.

ـ تهمل وجه باتريسييا. كفت أناستاسيا عن البكاء وجاءت عندي حابية.

ـ جئت في الوقت المناسب. أنا ستاسيا في حاجة الآن إلى من يحملها.

ـ أخذتها بين ذراعي. أن تغامر بحياتك هي الحياة نفسها. إن السفر في الطائرة ظل حلمي منذ سمعت هديرها لأول مرة . أكثر أحلامي تذكرها هي طيراني. غالباً ما يكون طيراني فوق الأحراج وينتهي بالنزول أمام مدخل كهف تخيلني الوحيد الذي يعرفه. أتلذذ فيه بعزلتي بعيداً عن الروائح البشرية التي سئمت منها وسئمت مني.

ـ نَغْنَغَتْ أناستاسيا. لا صبر لأمها على تربية الأطفال لكنها تحبهما.

ـ أكنت تسفينها؟

ـ أوه كلا. ماذا تقول! لم أكن أسب أحداً. إنها عادة أخفف بها عن نفسي. ربما كنت أسبني دون أنأشعر. لا أدرى!

أول عومة لي في هذا العام. كان البحر يخزن حرارة موسم الصيف كله . هناك ناس لا يصحون الأليmarsوا بلادتهم، وأخرون يولدون بلداء ، ويموتون بلداء ، ويزعجون الآخرين.

افترقنا حرجاً؟ فضيحة؟ جاء من يثبت ما كناه! ان براين جيسن يُؤسِّطُ الناس ، وكثيراً من الأشياء حتى لا نعرف أهو جاد أم مازح ! Sitges سيتسيت! آه من شفتها ، ولليل أزقتها البيضاء! هناك رأيت العاشقين المتعاتبين يقرأون الرسائل المؤجلة ، غير المرسلة بعد. ماذا يبقى لنا سوى شفق يذكرنا بأشفاق بعيدة أو قريبة! مصبت باتريسيا صاروخها وسألتني :

- كيف تركت الشارع؟

- مثل كل عام : شعارات جاهزة ، مراقبة قبل أن ينادوا بها. هذه السنة يحتاجون بحدة على تكاثر العمارات، من يبنيها؟ في كل عام يسمحون لمثل هذا العيد العمالي أن يمر في سلام. آه من اللماطة السياسية!

- شكري! انهم على حق. طنجة بدأت تتخلى عن أرضها لتبعد عن السماء الوهمية. كلنا عانينا من الغزو والضياع. لنبدأ من جديد كي نستعيد هويتنا. ان من يصطاد فراشه في الغابة قد تصطاده أفعى أسامة ، ومن يصطاد سمكة قد يفترسه سمك القرش .

أكلنا كان بطينا في أعينهم ، وأفواهم كانت سريعة في دهشتنا. من رأى ليس مثل من أكل. لا صلة لنا بالعين والفهم.

يجتمع في باتريسيا الفرح والحزن ، والشكوى والتذمر. لن أناقشها. وقفت خارج الغرفة الدخانية لأبعد أناستاسيا عن هواء الحشيش . لقد غفت على كتفي. صحيح أنها كانت في حاجة الى من يحملها. قال لي لوشوفاليي :

- كلما ابتعدت عن أصدقائي صاروا أقرب اليّ. تماس ولا تواجه أو تلتتصق. أغلب الناس يرون حدوداً حتى عندما لا تكون

هناك حدود.

أشرت الى كوخ توماس الروخو :

- كان يسكن هناك عجوز اسباني مات منذ شهور. كنت أعرفه.

- أتمنى أن يكون قد عرف كيف عاش.

أناستاسيا نامت. مددتها فوق الفراش الواطئ. مدت لي باتريسيا صاروخها. عاطفتها ضبابية، رومانтика، لكنها تعرف كيف تتلذذ باختفائها.

- ما هي قصة العجوز؟

- كان يكره فرانكو، وبيع بالونات للأطفال. (كنت أكلمها خارج الغرفة)

- أهذا كل شيء عنه؟

- وماذا تريدين له أكثر؟

- كان يعيش اذن زمن الصمت في المنفى!

- وماذا تريدين له أن يفعل؟

- انك تبالغ دائما في تمجيد حياة الشيوخ. لم يعد هناك من يستوحى زمن النبوة.

- كيف وجدت بيتيتو هذه المرة؟

- لقد أفطرنا معا في مقهى ستراال.

- قال لي ذلك.

- قرأ عليّ قصائده الثلاث الأخيرة. انه تخلى عن تلقائيته الشعرية وبدأ يعقلن الأشياء، لكنه لم يبرأ، بعد، من أبيقوريته.

- ومن قبل كان يطمح أن يصير صوفيا. انه مرحل.

- أعرف هذا. قل لي : وصديفك لو شوفاليبي؟

- مازال يحيا . تلازمه ، هذه الأيام ، سوداوية. له أخ في أوستراليا يتراسل معه على فترات متباينة. لو شوفاليبي يتهم أخيه بول بخيانة زوجته لأنه هجرها لتبיע امرأة أخرى الى أوستراليا. وفي

آخر مراسلة بينهما كشف له أخوه عن أن كلاهما عاش مخدوعاً. إن زوجيهما الأختين كانتا تخونانهما مع عشيقين من أيام الصبا.

زوجة شارل لوشو فاليري ماتت، وأولادهما تزوجوا وأنجبو أاما بول فلا أولاد له: زوجته، اليوم، تجترّ شيخوختها وحدتها في لوفان

. LOUVAIN

رحلت باتريسييا مع آخر الهيسين في بداية السبعينات ولم تعد قط إلى طنجة. في الصيف الماضي زارني شاب إيطالي. أخبرني أن باتريسييا مصابة بورم مخفي خبيث. ابنته تدرس في الجامعة. كتبت لها كلمات وداع. لا أحد يجيء بعد أن يجيء الأخير.

23

1

هل ينبغي لي أن أكتب عن الثلوج حيث يوجد أو عن السيجارة المشتهاة في الزنزانة؟ قد يكون ما يمكن أن يكون. لترك فسحة مجال لمن يأمل، رغم أنه لا مجال، وكل مجال.

قاسم وحيد أمه. يعيش معها، لكنه يرفضها وهو لصيق بها. يطيعها، أمّا، لكنه عاجز عن اقتناعه بتوبتها. يحبها ويكره امرأة أخرى. لحظات تتباه هدوءاً معها فتغمره أخيالة: طفولته في اشراق بحيرة سرية، لكنه يعيش ذكري حصار وهمي: غرام في "ضایة عواً". قيادته أخطاء كثيرة لا يعرف كيف ينفك منها. القريب منه بعيد عنه. الخوف يخدر حواسه فيشرد ويغيّم ما يحدث له في حزن. لا يعرف كيف يستمد شجاعته من خوفه. انه حبيس حصاره. كل علاقة تضاعف شقاءه. أصدقاؤه لا يتعدون أصابع يده. ذات ليلة أسكرناه في بيت أحد هؤلاء الأصدقاء. تطوعت فتاة شبه محترفة لتخرجه من

حصاره. اكتريناها، مخرج ضيق، لكنها محاولة. كاد أن يختنقها لو لم نقتسم غرفتها. في تلك الليلة خبط أمه بما طالته يداه. أنها البداية التي لن تنتهي معها كلما سكر وتخانق مع إمرأة. تعود أن يأكل ما هو حلو مع أمه، لكنه يفتقد أية حلاوة مع غيرها من النساء. لا يريد أن يبقى مجرد تذكرة في ذاكرة من يشفق عليه، لكنه عاجز عن تخطي أي حاجز لفك حصاره. يخشى أن ينخدش. يصاب بالدوخة عندما يفكر في المغامرة التي ستقوده إلى المجهول فيظل حبيس نفسه. نادراً ما يجلس في مقهى، وإذا جلس فقدام الباب: انه حصار آخر. يمشي كثيراً يخفف من توتره. نزهته عبر الشاطئ أو في "الجبل الكبير". يزورني مرة أو مرتين في الأسبوع. لم نكن صديقين حميمين، لكنني أشفق عليه وتجمعني المهمة: هويدرس الفرنسية وأنا العربية. اهتمامه بالأدب الفرنسي يبدأ مع مدام دو سطائيل ويتهي مع ملارمي. نستمع معاً إلى الكلاسيكيات. أحبّها إليه لا باتيتيك، شهزاد، دون جيوفاني وايرويكا. حضوره ليس مزعجاً لمن يحب السكوت. أقرأ أو أكتب وهو شارد مع الموسيقى. عندما يتنهد ينظر إلىّ. أتعدّ ألا أتبهّ إليه. ساهياً ينظر إلىّ مرات. لا شيء مني يثير وساوسه. يستعيد طمأنينته وشروعه وأنا قارئ أو كاتب أو متظاهر بالشروع مثله مغمضاً عينيّ. يخجله ماضيّ أمه. كافحت بجسدها الشاب من أجل مستقبله، لكنه لم يغفر لها ظروفها. هجرت الرجال وصارت منظفة في فندق حينما أصبح هو معلماً. هي الآن في حدود الخمسين، وهو يقترب من الثلاثين. يحمل معه دائماً صورة لها في عز شبابها. يعتقد أن كل من هو في عمرها قد يعرف مهنة شبابها: الرجال والنساء. سألته امرأة في الحبي عنها فهاج:

- لماذا تسألين عنها؟ من أين تعرفينها؟ أهي من عائلتك؟

- لم يعد يجرؤ أحد أن يسأله عنها: الرجال أفظع. أخرج صورة

أمه ومدهالي:

- هل تعرفها؟

نظرت اليها واليه:

- لا.

ألم ترها قط؟

- أبداً.

أعدتها له:

- من هي؟

قال باضطراب:

- أنا نفسي لا أعرفها. لا أدرى من وضعها في أحد كتبى.

عيثا حاول أن يبعد أمه عن طنجة ليعيشَا في احدى المدن الشمالية: اصيلة، العرائش، القصر الكبير، تطوان والشاون. أينما شاءت، لكن أمه تصرّ على العيش والموت حيث ولدت.

هذا المساء زارني على غير عادة هدوئه. حتى الموسيقى التي يحبها لم أحس أنه يتمتع بها. أقلقني معه. تمنيت لو أني لم أعرفه. حدست أن شيئاً غير عادي سيحدث. كنت أقرأ رواية العطر لباتريك سو سكيند في ترجمتها الإسبانية. أخرج قاسم، بكل هدوء، خنجرا مطويًا تطابقت طقطقاته مع خفقات قلبي وهو يفتحه سناً بعد سن. ماذا يريد بي؟ تخويفي لكي يتلذذ؟ جريمة مجنونة عن يأس؟ لكن لماذا أنا بالذات؟ ليس بيننا أية خصومة. لا أعرف عن أمه أكثر مما سمعته عنها. أنا في نفس عمرها. هذا كل شيء. لم أفهم شيئاً. ليس هناك مبرر لكي يعتدي عليَّ.

أسطوانة لا باتيتها تدور وهو يلامس بهدوء، ومهل، أظافره بشفرة الخنجر. نهضت دون أن ألتفت اليه حاملاً من المطبخ الخشبة التي أقطع عليها اللحم ومقدمة ثم فتحت الثلاجة وأخرجت منها فخذ خروف. وضعت الخشبة فوق الطاولة وبدأت أقدّ الفخذ بالمقدمة بنفس الهدوء العصبي، المتلاعب الذي يلامس به حدّ الخنجر أظافره. كلانا

كان يمثل في تحدٌّ: مزيج من السخرية المرعبة. أبداً لم يسبق لي أن مررت بمثل هذه التجربة المجنونة! صرت مجنوناً مثله. أتمنى أن يحدث شيء عنيف يغير حياتي. اشتقت إلى ذلك. أريد أن اختبر نفسي. إما هو وإما أنا. أتوقف لأدخن سيجارتي الموضوعة في شق المنفحة ثم أعود إلى قد الفخذ. ذات لحظة فكرت أن أهوي بالمقدة على رأسه وأ قوله مثل هذه الفخذ وينتهي هذا الاستفزاز المجنون. يتبع حركاتي ساهياً، وينفس السكينة المتلاعبة، التمثيلية، التي أخرج بها خنجره المسنون، طواه وأعاده إلى جيبه. غمست أصبعي في شق اللحم ومصصته بلذة. غادرني في صمت دون أن نتوادع. في متتصف الدرج التفت إليّ وابتسم بعصبية ثم قهقهه ونزل. أنا أيضاً قهقهت.

في تلك الليلة صرخت أمه واستغاثت أكثر من العادة. ثيابها ممزقة ووجهها مخموش. تبكي ولا ت يريد أن تحكي شيئاً بوضوح عما حدث. آخر جارة غادرتها سمعتها تقول:

- لن أراه أبداً. لقد خرج من بطني، هذا أكيد، لكنه شيطان.
بعد حوالي سنتين، كنت عائداً من الرباط إلى طنجة. توقفت الحافلة في محطة العرائش. نزلت لأشرب شيئاً. انه قاسم: حاف، ملتح، وسخ إلى حد التقرز. يجمع عقباً من هنا وعقباً من هناك. واحد في فمه مشتعل. في يده اليسرى كتاب ممزق. ألغيت مشروبي. وذهبت لأشرب لي له السجائر. لم أتأخر، لكنه اختفى. بحثت عنه في كل المحطة. سألت عنه خادم المقهى.

- انه ينام في المقبرة النضرانية القديمة. يسمونه الفيلسوف.
سمعت زمارة الحافلة تعلن الإقلالع فركبت.

24

مابرڪ

لم أكن أعرف أن لطيفو لوطي إلاً هذا المساء. ربما لم يكن فخاً مقصوداً! كان صحبة شاب أمرد. نشرب في مقهى روكي. هنا عرفته منذ شهور. لم أدرككم من أيام وأنا أشرب بافراطاً! ذاكرتي هذيانية، مشوشة، غائمة، هاترة. اقترح عليّ لطيفو أن نشرب في صومعتي. وافقت بهزة من رأسي. أكاد أنهار، لكنني أكابد. حدست أن شيئاً ما مبهم ينتظرنـي هذه الليلة. غاب وعاد حاملاً زجاجة نبيذ وزجاجات بيرة.

بدأتـا، في شقتي، نحتفل بمجز النبيذ بالبيرة. بـاس لـطيفـو مـعـشـوقـهـ. مـازـحـهـ. استـشـشـىـ المـعـشـوقـ دونـ أـنـ يـبـالـيـ بيـ. نـظـرـ إـلـيـ باـغـراءـ. مـسـتـعـدـ أـنـ يـشـاعـ. أـسـرـ لـيـ لـطـيفـوـ أـنـهـ مـشـرـوكـ بـيـتناـ. رـفـضـتـ. ذـهـبـتـ إـلـىـ المـطـبـخـ وـوـضـعـتـ سـكـينـاـ فـيـ جـيـبـيـ. فـتـحـ لـطـيفـوـ الـبـابـ. كـانـ جـونـ لـيـنـونـ يـغـنـيـ "ـخـيـالـ"ـ. IMAGINE قـفـزـتـ وـأـمـسـكـتـهـ مـنـ ذـرـاعـهـ.

- ستر الراديو - الكاسيت في مكانه .
الأمرد انسن مثل قط استشعر الخطر . غلقت الباب . دفعني فتلقتني الثلاجة . أشهرت السكين . أطلق الراديو - الكاسيت من يده وجرى نحو الشرفة . أتحت له مساحتها الكبيرة كي يراوغ بين الغسيل . تلقى الطعنة بجماع قبضته يده .
يبدو أنني سددت السكين إلى بطنه . رحت أخطب عشوائيا بجنون . لم أكن أنا . كان الوحش القابع في كل إنسان هو الذي يطعن . بدأ يعيدي . فكرت في الجيران فتوقفت . أتحت له المجال لكي يخرج . ركلته وأغلقت الباب . تمثيل بين الغرفتين والشرفة بجنون مسرحي خابطا الهواء بالسكين كيما أسكن الوحش الموقظ ، الهائج ، الجائع والعطشان . رميت السكين من الشرفة إلى الشارع . قد أطعن بها نفسى في مثل هذا الانحطاط العصبي والجسدي . ثمت بكمال ثيابي متخرطا في نوبة من البكاء الهستيري . حلمت برؤوس شقق عروقها تفوح ثم تشفف ، وبيطون ثبر ، وعيون تسمك .

في الصباح أفاقني دق على الباب . كانت لطمخات دم على الجدران . كنت كلبي أرعش وأنا أفتح الباب . انه عبد المالك ، صاحب العمارة . لم يحاورني عما حدث . استسلمت له . غمغمت :
- خذني إلى تطوان . مستشفى مايوركا . الدكتور الجعدي . أعرفه .
سأكون في اطمئنان عنده .

أفقت حوالي الثانية صباحا في حجرة مع مريضين . عزلة اشتقت إليها . بعيداً عن أعرفهم ومن لا أعرفهم . أفر للقرف البشري . دخنت سيجارتين . أستيقظ النائم عن يساره . أعطيته سيجارة . دخنها بلذة . تحدثنا عن النوم وعدد ساعات اللازمة للإنسان ، لكننا اتفقنا على أن النوم في المستشفيات ، والسجون ، ليس مثل النوم في بيتنا . الهدوء شامل في المستشفى كله . فجأة ظهرت امرأة تتمشى في المرجئة وذهابا . أخذتني بنظرة كثيبة . ربما هي تكافح أرقها اذا لم تكن قد

تناولت القرص المُنْوَمْ. نفسيتي هادئة. امرأة أخرى تستيقظ وتفتح
الراديو. قال لي جاري العمراني :
- انهم ذبحوا لها ابنها في فاس بعد أن اغتصبوه. عمره اثنتا عشر
سنة.

في الصباح، تواجد على حجرتنا كثير من المرضى، رجالاً
ونساء. كانوا يتناوبون في المجيء. انهم يشمون المريض الجديد. ترك
لي عبد المالك حفنة من النقود. مريضة تغرى بجمالها وغضبها.
طلبت أعز شيء في المستشفى : سيجارة. لم يسعفها الانتحار.
ابتلعت كمية من الأقراص المنومة، ومضخت الزجاج. ذكرتني
بالمزمizi في مستشفىبني مكادة. أسجل هذه المذكرات في أي
وقت. انها الخامسة صباحاً. عندي امتياز للخروج من المستشفى. لا
أخرج الآلشراء حاجياتي. ان الوجوه في الخارج تبدو لي بليدة،
مزعجة، أما هنا فهي وجوه أذكاها الشقاء، والقلق الدائم. خbiz
المستشفى له طعمه الخاص. ان المجانين يفتحون لي أبواب الإلهام
لأطل على العالم. كلما نظرت الى معجون رأيت فيه شعلة الذكاء
خالية عمرها عمر البشرية نفسها. هنا يتجلّى منتهى شقاء الانسان.
أسمع صرخات غلام يبكي :

- ماما، خذيني الى مرتيل. مرتيل، مرتيل!
لأول مرة يكلمني عبد الحكيم. كنا نفتر. قال لي :
- من جاءنا فهو آخرنا، ومن لم يجيء فهو آخرنا الحقيقي،
أعطني سيجارة. لقد حللت في روحي روح المهدى ابن تومرت .
- أنت المسعود.
- عندي لك طلب.
- ما هو يا حكيم؟ (هكذا صرت أنا ديه).
- أريد جلبابا أبيض لأحكم بالعدل. ان هذا الخاتم الذي تراه
أعارني إياه سليمان الحكيم، وأمرني أن أحكم به .

- لكن رجال العدالة اليوم يحكمون بلباس أسود.
- هؤلاء لم تصلهم بعد دعوة البياض، أما أنا فقد وصلتني
قبلهم، البياض البياض..!
قال نجيب:

- أما أنا فأشتري ما يُؤكل أكثر مما أرغب في أكله. لا أريد أن
أكون وردة أو غصناً يابساً ليُحرق، إنما أريد أن أصير حبة رمل، ان
حبات الرمل أكثر شبهاً ببعضها من الزهور والأغصان.
دخل حجرتنا أحد المرضى وقال:

- إن المطر يسقط علينا مثل الحجر.

أحد المرضى سقط من يده كرتون حليب فانفجر. وكل الكرتون
ومضى. قام آخر فاتحة إليه وراح يرشّفه مع الوحل. قال ميلود:
- لقد خرجت من بلادي حافياً، ووصلت إلى بلد غريب حافياً،
ما جدوى ما في الطريق أذن؟ فابتلت حفاة وغرباء مثلني. طريقنا
كانت مختلفة، لكن منفانا كان واحداً. انهم لا يستعملون الخطب.
انهم دائمًا يقفلون حتى نوافذهم. لكل باب عين في وسطها هي مثل
عين سمكة ميتة. من يستطيع أن يدق على أبوابهم!
آه من الغربة في المدن! أملنا أذن في أكواخ الجبال والبراري. هناك
يجد دائمًا الغريب ملجأه.

سلفت لثريا نهاراً درهماً. ومن عادتها أن تستيقظ في تمام الثالثة
صباحاً، وسواستها هو أن تنظف المرّ والحجرات في جناحنا. لا أحد
يستطيع أن يمنعها. توقفتني كل ليلة لترد لي الدرهم الذي تأخذه مني
نهاراً. ذات ليلة ازعجتُ من هذا الإيقاظ فأخذت تبكي وهي تردد:
- أنا مثل أختك، لكنك لا تخبني!

عيثا حاولت أن أقنعها أنني لا أريد أن توقفني وقت تنظيفها.
كانت تدخن سيجارتها متاملة، جالسة على الأرض. ندمت على
عتابي لها، لكنها استمرت تسلف مني الدرهم كل يوم في النهار

لترده لي في الثالثة صباحاً. أعتقد أنه نفس درهمي. انطاح الجدار، اذا شئت، إنها ثريا المنظفة الليلية دون أن يكلفها أحد بهذا الوسوس. تحاور نفسها. تدمدم. لا ترابط في كلامها. في ليلة سألتها:

- من لا ينام الآن في الحجرات الأخرى؟

- كلهم ينامون. الجن هم الذين لا ينامون.

يؤمنُ عندي، أخو الباهي، ثلاث أو أربع علب سجائر لأخيه. يستهلكها له المرضى في يوم واحد إذا هو أعطاها له. أعطيه أربع أو خمس سجائر مرتين في اليوم. يدخلها على التوالي دون توقف. يعذني، كلما رأيته، أنه سُيُورٌ ثني بَغْلة، وتفوداً من العملة الحَسِنَة مطمورة تحت شجرةتين. الزقَن الذي يتكلم عنه هو بداية الثلاثيات. أكله المفضل هو البيض المقلبي. عندما يأتي له به أخوه يعزف عن أكل المستشفى. غالباً ما يؤكله، هذه الوجبة، الودراسي. كلّاهما أَزْمَنْ هنا. يتحدثان عنَّ أشياء مشتركة بينهما. إنّهما بدويان. يحتمل حوارهما كُلَّما اجتمعوا. كانا يأكلان وأنا قربهما. فجأة أصبعه الودراسي في عينه اليسرى. الدم يسيل من الخدش تحت العين، لكن حديثهما استمر. ناديت المريض في الدوام. عالجه وهو مستمران في أكلهما، وحديثهما. لا عتاب بينهما. ولم يقل المريض شيئاً لأحدهما. عندما انتهيا من الأكل باس الودراسي رأس الباهي وانصرف شاكراً. أعطيت للباهي ثلاث سجائر وتركته يتلذذ بتدخينه، وتأمله. انه يشغل الواحدة بالأخرى حتى تنتهي.

جاءني عبد المالك بالجلباب الأبيض من طنجة. اشتريت لحكيم صابونة ليغسل. راح يزهو بحُلْته الجديدة في جناحنا، ثم ذهب إلى الجناح الثاني، لكنه عندما أراد أن يدخل الجناح الثالث، جناح الخرائين في ثيابهم، كما يسمونهم، منعه حارسهم البوعناني. كان حكيم قد تعلم شيئاً من الكراتي. البوعناني قوي، جسمه دُبِّي، لكن لكماته يُخبطها في الهواء أمساك حكيم. جلباه

مزق ، ملطخ بالدم . سأله :

- كيف تركته يمزق لك الجباب؟

- ولكن وجهه ممزق أكثر من جلبابي . (امش شوف الوجه
اديماه).

- والآن ماذا ستفعل بالجلباب؟ إنك لا تستطيع أن تحكم به حتى
وانرقعته . لن يكون حكمك عادلاً.

- أعطوني ثمن خيط رايبرة . سأرجّل مهمتي للحكم ، وكذلك
الزيارة التي كنت أنتظرها .

- زيارة من؟

- من كان سيُنصبني للحكم .

طلبت مني أيضاً ثرياء الدرهم المعهود . المساء يقترب . إنها ستتم
الآن لتوقيتني ، كالعادة ، في ساعة تنظيفها ، والدرهم في يدها .
أمطار خفيفة ، والجوغائم ، ومریض يعني :

- الليل ليتنا ، أينك يا ليل؟

قضيت يومين مع أسرتي . الصمت الصحراوي مازال قائماً بيني
وبين أبي . إرضاء لأمي ، كالعادة ، بست له رأسه دون أن نتكلّم .
الشقاء الذي نلتة منه في طفولتي يناله مني فيشيخوخته . لا مصالحة
بيننا إلى الأبد . أردت أن ألقى نظرة على دروب طفولتي . تذكرت
بوعصا وعرباته السكرية في جبته البيضاء في العيون ، وازرع كون ،
ومجدوب السي المفضل ، وأخرين أنساني اغترابي حتى أسماءهم .
كوميرمات ، وبطاطي هو الباقي الوحيد من بين رفقاء طفولتي . عند
مدخل باب النوادر فاجأني المشهد : انه حكيم . يلوح بعصا في يده
وخلفه جماعة من الأطفال . لقد هرّب اذن ! رأني فأوقف فرقته .

سأله :

- إلى أين يا حكيم؟

- إلى المستشفى إن شاء الله .

- وهل ألا الأطفال؟
- انهم أنصار يـ.
- ماذا تـوي أن تفعل معهم؟
- سنحرر اخوتنا هناك.
- وأين السلاح؟
- الحجارة ، سـحارب الجـيد بما هو قـديم . تعال مـعاـ.
- أنا عـائد إـلى طـنجة لأـحرر مـثلـك اـخـوتـنا هـنـاكـ.
- بـلـغـ لهم سـلامـيـ.
دـسـستـ لـهـ عـشـرـينـ درـهـماـ فـيـ يـدـهـ فـعـانـقـنـيـ دـاعـيـاـ بـالـبـرـكـةـ . اـسـتـأـنـفـ مـسـيرـتـهـ وـفـرـقـتـهـ تـتـبعـهـ .

25

مأمورات الأمانة

بين أعمى ومبصر، حقيقة شيء يختلف معناه في لمسهما وإنصاتهما. هذا ما يقوله، عادة، المبصرون. ماذا عسى يقوله الآباء عن موت أمه؟ لا شيء من كل شيء. أمن القطرة نعرف البحر؟ ومن حبة الرمل نعرف الصحراء؟ والورقة الوحشية الخضراء هي كل الغابة؟ هذا مثل من يحلم بالسفر ولا يسافر؟ انه يتولد ولا ينتظر موسم اللقاء. أما أنا فلا طموح لي في يمين الأصفار، وذرية الأجيال. ان الكلمات تبللت، والوحى اللغوي مات قديسوه. لم يبق لنا إلا كفاح أهرامات ذكائنا تنبئ خلاياها السابعة لتنقذنا من ركودنا في الأواني المناسب. عاش الأحياء قدر ما يموت الأحياء - الأموات! رنين الجرس متواصل مصحوباً بدقائق على الباب. عنيد هو من يدق . فهو مجرد ازعاج ليلى أم اعتداء صريح؟ من يدري! انك ، غالبا ، لا تخلق أعداءك ، إنما يخلقون أنفسهم فيك أو

يخلقونهم فيك . هناك دائمًا متطوعون . انه وسوس . لا أكثر من أن تكون ، في مثل هذه الساعة الفجرية ، إحداهم . ليست هذه هي المرة الأولى ، لكن ليس بهذا العنف والإلحاح . آخر مرة جاءت حمقاء مُسالمة تطلب سجائر في آخر الليل . أنها تمجد الحشيش ، والنسيان ، لا من كان أو من سيكون . الجرس والدق متواصلاً . لم يحدث ، من قبل ، مثل هذا الاستعجال . مازلت تملأ . شهر يونيو . الصيف لم يعد له وجود في حياتي . عَقْنَ . زمن اشرأقه كان في شبابي . ربما أنا الذي عَفَّتُ . يقل في طعامي ونومي . ما كنت أكذبه أصدقه اليوم . متى يكون المكتبان صادقاً؟ والنكبات التي تولد الطاقات؟ والخراب الشامل الذي يعيد بناء المدن؟ إنها المصائب التي تخلق الجمال! هذا ما يقوله علماء العمran . المرأة التي تتعرّى ، نموذجاً ، لا تثير شهوة الرسام : لأن الفن يتطلعها . الزمن لا ينتظر الكُسْحان . لا يتطابق العيش وفهمه في آن . ربما أجمل العيش وَهُمْ . لسان البحر يلعق قدمي . أبلل ابطي ، وأنظر إلى الأفق ، وإلى السماء ، وإلى الرمل ثم إلى أقصى الزرقة المغربية بالغمارة المميتة . كدت أغرق ثلاث مرات كلما بَجَحَتْ نفسِي فيه . مرة أتقذنِي بن بوبيكر صحبة صديقه فلوريس (1) في شاطئ مرْتيل . اليوم أرش رأسِي بحفنة أو حفتين . لم أعد أنخدع بانجذاب فيروزيته ولا زورديته الأصيلية . أبداً لا . الرنين والدق تَوَامَان . حمقاء أخرى . فلتنتظر! أهو أنا دائمًا ملجمًا آخر كأس ، وفراش لآخر الزُّناة؟ كان هناك غطاس يقول لي: مَهْبِلٌ في خيالك عندما لا يأتي في أوانه الغائب الذي هو لغيرك . إن قرابة نفسك أوْكَى من بعيد المنتظر . الدق الآن جنون! أستقبل ، تباعاً ، ضيوفاً لا بحر في مدنهم . مدینتي ليست لهم إلا الشوارع - الارشاد ، والملاهي والحانات - اللقاء ، والملاهي والفنادق - المواتير . هذه هي كل

(1) ملاكمان عاشا في نطران في أواخر الأربعينيات.

مديتي لهم. ليست لهم إلا الفرج أمامهم، والأسد وراءهم، وليس لهم إلا النصر العزيز. لقد أسطروها وما زالوا يتسائلون عن مُنشئها.
الشراب، مع ضيوفه، خرافي.

أهزل وأهزل - كلما جاءوا - حتى الإنهاك، والإغماء، والهدان، حتى ماتت أمي في غيابي. مشيت حافيا. كشف لي، ضابط الرؤية، عن ضباب شبح.

- من أنت؟

لا كهرباء. انهم يحافظون على الطاقة منذ سنوات. الرنين والدقّ معاً. مجنونة. لا بد أن تكون قد تقىأها آخر ملهم في حالة إفلاس قاهر. قال لي مسرحي: "لقد كسبت صداقه النساء أكثر من صداقه الرجال." أنا لست كاسباً إلا صداقتني مع نفسي.

- افتح، أنا العاقل.

انه هو إذن. زوج اختي. ما حدث لا بد أن يكون مصيبة حتى يجيء في هذه الساعة.

- أمك ماتت.

بصوت مبحوح ثمل:

- ماتت إذن.

- نعم. البس بسرعة.

أحب الماء على رأسي مقاوماً ترجمي. هذه هي مساوى ضيوفي الذين يشربون أكثر مني حتى الانحطاط الجسدي والمعنوي. انهم جمال تردد. فلما يتنهي سكرهم دون نحس: يكفي خلافهم في معنى بيت شعر. هم يعودون إلى مدنهم ليستريحوا، وأنا أبقى هنا دولابهم. كذلك فعلوا مع سكوت فتجرالد، وجاك كرواك حتى قتلواهما بالأنهاب. محكوم بماضي معهم، لكن ينبغي أن أحسم في قول لا لصحتهم. لقد بنى هنري ثورو كوخا في أحراج وايلدن بند (1) وراح يكتب عن النمل، وروائع الغابات، محترقاً هواء المكاتب

الفاسد. ان رائحة الروث، في الحظائر، لهي أذكى من رواحة أفحى
الخمارات. الخامسة صباحاً. سيارته متينة وجديدة. سرعته بالغة،
لكنه ليس طائشاً في سياقته. من عادتي، ألا أقول لمن يسرع أبطئ. انه
قد يتمادي في السرعة: تبجحاً أو عناداً، بل قد أشجعه على التمادي
فيها بحماس وانشراح رغم أنني حريص على حياتي المهددة بهذه
المجازية العبيضة. لكن هؤلاء لا تخش على نفسك معهم: فهم غالباً ما
يخفون جبنهم في سرعة قد تدوم لحظة أو لحظات ثم يرزنون
شاحين، خائفين. طبعاً هناك مجانين السرعة الحقيقيون مثل جيمس
دين الأصيل في جنونه.

- متى ماتت؟

- منذ ساعات في المستشفى المدني. مضى يومان وهي في
غيبوبة.

لم أرها منذ أكثر من سنة. شغلت المسجلة ورجوتها أن تغنى لي
بالريفية. انحرجت قليلاً باسمة ثم غنت. الكلمات من خلق مرح
الطفولة والخطب والمصاد، لكن صوتها حزين. لقد أضيعتها
شيخوختها المهمومة. الاغتراب برّد حنيني إليها. لاشك أنها فكرت،
كعادتها، في بعدي عنها. أني شاطر الأسرة الوحيد. أنها ميتة - حية:
أيقظني حنيني إليها صباح صيفي. خواء في الروح. انحطاط
صحي. لم أتذكرها ميتة إلا وأنا في محطة السفر. لا تقهري العزلة إلا
أيام المرض. الثالثة صباحاً. غالبت انحطاطي حتى وقفت. متربحاً
وصلت إلى الباب. وضعت الفرجون (فرشاة الملابس) في فرجة
الباب حتى لا ينغلق. قد لا أستطيع النهوض مرة أخرى. سأحبوا أو
أزحف إذا ما تفاقم مرضي. أغفو وأصحو. ربما ما بينهما هو الأجمل.
كل ما أتذكره في وضوح هو أقل جمالاً. ليس عيناً أن تتغذى السمكة
الساحرة من سمكة ميتة. النور الشفقي ييزغ. منذ سنوات لم أر فيها

مثل هذا المطلع. هيكل سيارة مهشّم، صدئ، قرب شجرة هي كلها جذعها اليابس. بقايا كلب في الطريق، طيور تحلق، أخرى جائمة على الأسلاك الكهربائية. لم أزر سبتة منذ تزوجت فيها أرجيمو في حي البرينسيبي. أكثر من عشر سنوات مضت. من تقاليد قبيلة زوج اختي أن يحمل أخو العروس الأكبر اخته بين ذراعيه من الهودج إلى صحن الدار. وجدني عبد العزيز في حالة شعبية مع عجوزين إسبانيين عاش أحدهما زمانا طويلا في طنجة. غادرها بعد الاستقلال. يتذكر فيها يهوديات من أوروبا الشرقية أيام النازية، تقل العصافير الدورية والزرازير، والسردين المشوي بالبصل في الخمارات الخلفية، ونبيذ البراميل، والصناديق - المقاعد، وكل ثلاثة كزوس نوبة الدار ثم دائمًا هناك أكثر من زيون يتطلع للغناء. كدت أسقط وأنا أحملها. شطر العروسان خبزة الدار الكبيرة، المدور، خبزت لهذه الزفة. نثروا عليهم الملح. رشفتان من الحليب وحبتا تمر. وضعوا مفتاحاً كبيراً في يدها. نساء من عائلة العريس يتخاطفن المناديل المزركشة التي زين بها الهودج. كذلك فعلن بالدبایس التي تشد المناديل. هذا يبطل السحر كما قيل لي. السلطان للعريس وأهله. أهل العروس شاهدون وشبه خدم. شكل العريس قوساً بذراعيه في إطارباب الحجرة. مررت العروس تحت ذراعه المقوسة منحنية الرأس، ومررت أنا بين فتيات يتصرّون مع العروس لأعود إلى حالة العجوزين الإسبانيين.

- لماذا ماتت؟

- بنزيف أنفي. لم يتوقف خلال أسبوعين. اصطدم عصفور بـمقدّم السيارة. ربما لم يلتقط بعد حبته الأولى التي حلم بها. راع يقود قطيعه الصغير وخلفه كلبه الهزيل. امرأة تحلب بقرة. دجاجات وكتاكيت. طفل مُفعى ينكث الأرض بقصبة. تتخطى راكب دراجة بائساً. يُدوّس بعناء. دراجته قديمة. العرق

اليومي يبدأ. مباهج الصباح تنبثق. تهبت ساطعة. أغالب غفوتي. بيرة باردة. هذا ما أحتاجه الآن. تلتفت لي مليكة من تطوان راجية مني مساعدتها بمائة درهم لترميم ضرس يُؤرّقها. أخبرتني بحوث الأب.

- متى مات؟

- منذ شهور.

لماذا لم تخبروني يوم موته؟

- لأننا نعرف أنك لم تكن أبداً تتجبه.

- والجيران ماذا سيقولون عنني؟

- هم أيضاً يعرفون أنكم اكتتما دائمًا تبغضان.

كذلك فعلوا معي عندما ماتت خالتني فلم أعد أهتم بمن يحيى منهم ومن يموت. انهم لا يخبرونني إلا بأعراضهم. لا بد أن أمي هي التي طلبت حضوري. حتى في أيام مرضها وغيابها لم يخبروني. جيفة حمار في طرف حقل القمح. الأشجار كأنها تُسابقنا ونحسن تخططها. يدا صهري ثابتتان على المقود. لا يدخن ولا يشرب. أنا غالباً ما أمسك كأسني الأولى بيدي المترجفتين إذا لم أكن قد آسيت في نومي. اشعلت سيجارة. في النشقة الأولى دخلت، وفي المجة الثانية أخرجت رأسي من النافذة لأتقيا الهواء، وتدمع عيناي، وتمفعص أمعائي. نظرالي بطرف خفي. انه لا يقترب منك ليشم رائحتك. قال لي أخي عبد العزيز: "لقد بنينا قبراً جميلاً لا يأينا. لا بد لك من أن تزوره." اخوتنا، الذين ماتوا أيام المجائعة، والبؤس محظى الرياح والأمطار قبورهم المسطحة. طوبى لنا اليوم لأننا بدأنا نستطيع أن نبني قبوراً جميلة لمن يموت من أسرتنا. هكذا قلت له فانبهرت نظراته. رغم نحيب أخي، ارحيمو ومليلة، وبكاء امرأتين مهريتين، شاختا صداقه مع أمي في تطوان، فقد غلبتني غفوة. أفقت عندما صار البكاء تواحاً. ماء الورد يعبق في حجرة الموت، حيث غسلوها. موكب الدفن يبدأ نحو مقبرة سيدى مبارك. موت الغريبة.

حوالي عشرين مُثيّعاً. لا أعرف أحداً منهم. في الطريق انضاف آخرون إلى الموكب. لم تتسع في الحفرة. أخرجوها مرتين فصاحت:
رجل ملتح:

- أعباد الله، ارحموا المرأة! احفروا لها قبرها الذي تستحقه! لا تعذبوها!

حفر اللحاد حوا في الجدث للمرة الثالثة. تمنيت لو قطعت يديه وسملت عينيه. حتى عند الموت يُضيّقون الأرض. ماء الورد يُرُشّ على الكفن. صلاة العصر. خبز وتين يوز عان على الحاضرين. لم يكن هناك فقراء الخبز. دجاج محسوب بالرز. شراهة الأكل، حماس النقاش، بين ارحيمو ومليلة، حول بيع دارنا في تطوان. زوجاهما صامتان في حياد. بنيناها بالتعبئة الجيرانية، بحجارة الحرف القريب من الحي. الأطفال، النساء، والعاطلون كلهم شاركوا في بناء هذه الدار. أمنا أوصلت دائمًا ألا تتابع إلا إذا أرغمتنا الظروف، ولم يكن أحدنا مقهوراً بأشخاص. أخي كنت قد وته بصمتى. أقنعتهم بعدم شهيتي، لكن النقاش معى، حول بيع الدار، لن أعرف كيف أتخلص منه، عندما يتھون من المضغ ويوضع الشاي. غزانى غشيان بتلته دوحة. طوال اليوم دخنت حتى تَخَشَّب فمي. لم أشرب غير القهوة. زعمت أنني سأخرج لشراء السجائر. نصحتنى ارحيمو بالتقليل من التدخين:

- عبد العزيز سيخرج ويشريها لك إن كنت لا تستطيع أن تصبر حتى الغد.

وقفت وألحت على الخروج. أحسوا بانزعاجي. نسيبى لا يتفوّهان بشيء. موت أمنا ومزاد دارنا في نفس اليوم. لم يستمرَّ (من المرارة) يوماً من حياتي كما استمررتُ هذا اليوم. بموت أمي تموت كل أسرتي. أكدت لي على عودتي فوراً لأنني لا أعرف ليل سبعة. إنها لا تعرف أنني قد آنحبت ليلي مع أي ليل. انه دائمًا ينير لي دربًا للنجاة. انه

يعرف أصحابه في أيّ مكان: باريس، باريونينوف برشلونة، حتّى
كازن في بلنسية وباب مراكش في الدار البيضاء. في تلك اللحظة
تنبأت لو أكون في مكان لا تُعكر صمته حتى قطرة الرطوبة في كهف.
لا أذكر الحانات التي دخلتها. لقد غام كل شيء في الحانة الثانية أو
الثالثة. كيف غادرت المدينة؟ أصبحت نائماً بكمال ثيابي في شقتي.
عيشاً حاولت، عبر سنوات، أن أتذكر كيف وصلت إلى طنجة. فردة
حذاء ملأة بالبول قدام سريري، والأخرى فوق طبلية الليل يفوح
منها النبض. أعرف شخصاً بال وهو سكران على ابنته في مهدها وهو
يحسّبه مرخصة. أنا لم أبل سوى على نفسي. يوم بعثنا الدار،
وافتسمنا، حسب الشريعة الإسلامية، أخذت اختاي تباكيان في
صمت أمام العادلين في دارنا التي كنا ندعها لآخر مرة. سألت
جارنا عم يبكيهما فقال:

- علام يمكن أن تبكي؟ على ذكرى الوالدين!

أخذت ألف درهم من قسمتي على الطيفور، ومثلها من قسمة
أخي، وأعطيت لكل واحدة ألفاً فجئت دموعهما. همست بحارنا:

- إنها مسرحية أشخاصها مهرجون، منافقون.

غادرت تطوان شاعراً أن حبلنا السري قد انقطع، وأن جذوري
من شجرة عائلتي قد تعفنت إلى الأبد.

26

عشق ما لا يمكن أن يكون

ليست هذه المرة الأولى التي تجبيء فيها سالية إلى طنجة من مديتها الصغيرة. تجبيء زائرة، لكنها، هذه المرة، تريد أن تقيم. طنجة الحلم، طنجة العارية، الرنانة، الشفافة مثل كأس من البلور، طنجة الأسطورة، والجبل والصدى لكل صوت، لكن سالية لا تعرف أن طنجة تسحق من لا يعرف كيف يشرب خمرها المسحور. إنها مثل كيركا الساحرة. (1) عرفتُ من جاءها ليكتب الشعر فلم يتعلم حتى لغة الحانات، ومن جاء ليرسم فلم يعرف حتى كيف يمزج الألوان.

(1) هي الساحرة كيركا أو سيرينا، ملكة جزيرة أيايا ذات الفضائل الشفاء، بنت هليوس، رب الشمس، من برسا، بنت أوقيانيوس، رب البحر تسرّع البشر والحيوانات بشرابها المسحور، وعصاها السحرية، حيث أحالت رفاق عوليس إلى قطيع من الخنازير، وتجأل عوليس من سحرها لأنَّ الرب هيرميس سلّحه بعشب الفضيلة الذي يسميه هو ميروس، في الأديسا، "مولبي"، لأنه يطل مفعول شرابها المسحور الساحر.

جاءت سالية، هذه المرة، من مديتها التخسر كل شيء من أجل أن تكسب كل شيء. إنها تراهن بأسفلها على أعلاها الهش. حضورها، في الشراب والحسيش، هوسي. ومثل الفطر الذي يتکاثر ولا ينمو جعل الرجال يختصمون من أجل صحبتها. فُطِر مسموم لمن يعشقها. تعشق كل الرجال ولا تريدهم أحد. كم تظاهرت، لتهيج المرتدين جنسياً، أنها تُغتصب! إنها ابنة شرف (شاعر مديتها شاهد)، لكنها العنة عائلتها. تركت جسدها يغتصبه باكراً المراهقون، والحساشون، والسكارى، من مديتها وغير مديتها. يدها ترعش إذا هي مدتها إلى الكأس ويتساقط رماد سيجارتها دون أن تنفسه. قالت لصديقتها كارولينا: "لقد خانني كل من وعدني."

يُئسَت من الحب والزواج فتعلمت كيف تجعل الرجال يتشاركون من أجلها. كتبت في مذكراتها بخطها العصبي، الرديء: "أنت تعترض طريقي في كل مكان، لكن، أنا، لا طريق لي. إنك تخيفني مثل وحش أسطوري. أنا أبحث عن حلم ولا أرى فيك أي آية. إنك تريدينني، لكنني أريد نفسي بنفس القوة التي تزعم أنك تريدينني بها.

صديقي بالو ما هي أيضاً توزع وقتها بين الحشيش، والسكر، وكتابة خواطرها: "إنني لا أفهم نفسي فأكتب مثل معجنونة. السعادة، تبدو لي، مثل ضفدعه ذات قبعة من زيش الطاووس. الحب يخيفني. أنا ملاك جناحه أسودان. انه قلب بدون عين. لا أريد أن أسافر على حافة الهاوية. لم يعد الحب هماً. صار مثل حوت ميت، في الصيف، على أحد الشواطئ المهجورة."

بين الكؤوس وفراش الليل النابض يقظة ندم. تعود سالية إلى مديتها لتعيش نقاء الهواء، ل تسترجع في يقظة حلمها: نزواتها، وشهواتها، ثم طنجة من جديد بمساحيق زيتها.

للحانات مسوئها، ومن محاسنها أن تكون فيها. هكذا تُعزّي سالية نفسها. لكن للحانات مزاجها، ولحظاتها، وكأسها الأخيرة، وكل واحدة تريد أن تكون كليوباترة حانتها، والكأس المعروضة، اذا لم تخدر، التي قد تقودك الى وحل تلك الكأس الأخيرة: (عказ الطريق) كما يقول السكارى الذين يتازرون في محتفهم أكثر من غيرهم. انهم قد يُشعرون الغرباء ويجيئون الأقرباء. إن وحدتهم قاتلة، لكن عدوانيتهم أكثر من مؤانستهم. للسكارى مزاجهم: لم أكن أقتات، خلال ثلاثة أيام، إلا بما يتبقى من إفطار زبائن مقهى السي موح. البحر كان هائجا، والميناء مغبراً، من بواخر الحرب والسلع. حدث لي هذا عام 55. كنت زورقياً أحمل آخر البحارة الى بواخرهم وهم سكارى. الشّرقي (ريح الشرق) عاصف. مررت قدام حان ماريا وقت العشاء. ناداني عبد السلام. عرض عليّ كأس نبيذ. طلبت منه خمس بسيطات سلفاً للأكل بها شيئاً ثم أرجع. فهمت من اعتذر، المتلעם، أنه لا يملك سوى ثمن شرابه، وكأس أو كأسين لي. فكرت: أمعي أنا؟ أكلتُ النُّقلَ (أكلٌ خفيف مع الشراب)، الذي أعطيَ لي مع كأسي، التي رشفت منها، ونُقلَ كأسه، ونُقلَ جايده ثم توالٍ طلباته مشجعاً إياي على الأكل ومُرحباً بالشراب كأساً تلو الكأس. بدأ ينهار ويتعتم. قبل أن يغادر طلبت منه مائة بسيطة فأعطانيها دون اعتذار أو تلעם. لو أني طلبت منه أكثر لما رفض. ندمت.

زارت سالية أستاذها في منزله ليصحح لها ما تدعوه نصاً شعرياً. شربا وتحششاً معاً. وعندما رفضت أن تنام معه، حسب قولها، ممزق ثيابها، وعضها، في عنقها، وكتفها، عضات خرافية. سالية تعرف أنه كان أكثر سكراماً منها، وهي أكثر تحششاً منه، في تلك الليلة. كان هو يعيش قصة حب فاشلة مع تلميذة أخرى يريد الزواج منها، وهي أيضاً، كانت تعيش صدمةً عندما تزوجَ رفيقها غيرها.

أَلْهَا النَّهَارُ أَمِ اللَّيلُ؟

طُرِدَتْ مِنِ الْكُلْيَةِ لِأَنْ رَائحةَ صُبْحِهَا صَارَتْ تَشِيشَ بِرَائحةِ لَيْلِهَا.
لَا نَعْرُفُ إِنْ كَانَتْ شَحْبُ الزَّهْوَرِ أَوِ الْعَطُورِ، أَوْ لَا شَيْءٌ مِنْهُمَا.
جَاءَتْ سَالِيَّةُ إِلَى طَنْجَةِ فِي زَمْنٍ بَارِتَ فِيهِ أَجْمَلُ الْعَاهِراتِ.
أَكْثَرُهُنَّ حَظَاً فَدَيْتَرَّ وَجْهَهَا عَاطِلٌ، وَهِيَ قَدْ تَعْمَلُ مُنَظَّفَةً فِي أَحَدِ
الْفَنَادِقِ، أَوْ فِي مَطَبَّخِ مَطْعَمٍ. لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَجْدُ الذَّكْرِيَّاتِ المَهْزُومَةِ،
وَالْجَنُونُ الْكَثِيبُ، وَدَفَنَ الْحَبُوطَ فِي السُّكُرِ وَلَغَوَ الْخَانَاتِ.

تَتَقَازِفُ سَالِيَّةُ الْلَّيَالِيَّ بَيْنَ فَنْدَقٍ فَاخِرٍ أَوْ بَاسِسٍ حَسْبَ حَظْهَا، أَوْ
سُكُرَهَا، وَجِيبَ الزَّبَّوْنِ. لَا يَهُمُّ مِنْ يَكُونُ. اللَّيلُ وَالسُّكُرُ يَخْفِيَانِ
الْوَيْلَ. وَمِنْ مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ حَتَّى لَمْ يَعْدْ تَمَنَّ لَسَهْرَاتِهَا سُوَى تَسْكِينِ
هَوْسَهَا وَقَلْقَهَا. كُلُّ لَيْلَةٍ قَدْ يَعْلَمُهَا أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ، فِي رِفَاهٍ أَوْ
أَفْلَاسٍ، حَتَّى نِهايَةَ حَلَاؤِهَا.

لَمْ تَعْدْ لَسَالِيَّةُ رَائحةَ النَّهَارِ. كُلُّ لَيْلٍ لَا نَهَارَ لَهُ. يَقْبَحُهَا النَّهَارُ
وَيَجْمِلُهَا اللَّيلُ. لَمْ يَعْدْ يَهُمُّهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَتَّى تَعْتَرُ عَلَى مَنْ يَهُوَهَا
وَتَهُوَاهُ، لَكِنَّ الْعُشُقَ فِي طَنْجَةِ لَيْسَ مِنْ أَحْلَامِ الْعَذَارِيِّ. إِنَّهَا، هُنَا،
فَقَدَتْ نَفْسَهَا التَّصْيِيرُ مِثْلُ الْأَخْرِيَّاتِ.

إِنَّهَا زَمْنُ الشِّعْرِ، وَزَمْنُ الْحَلْمِ فِي طَنْجَةِ، لَكِنَّ أَيْنَ الشِّعْرَاءِ، وَأَيْنَ
الْحَالِمُونَ؟ إِنَّ الْهَزِيمَةَ تَشِيشِي فِي مَنْتَهِيَّ بُؤْسِ عِرَانَهَا أَيْنَمَا شَتَّتَهَا.
كِيفَ عَرَفَتْ سَالِيَّةَ.

كُنْتُ الْوَحِيدُ فِي قَاعَةِ فَنْدَقِ فِيلَلَا دُو فَرَانِسِ عِنْدَمَا دَخَلْتُهُ. النَّادِلُ
يَعْدِشُنِي عَنْ فَرْقِ كِرَةِ الْقَدْمَ الْوَطَنِيَّةِ وَالْمَحَلِّيَّةِ. حِينَ لَا يَكُونُ فِي الْقَاعَةِ
الصَّغِيرَةِ سُوَى شَخْصٍ أَوْ شَخْصَيْنِ يَلْعَنُ الْمَدِينَيْنِ لَهُ. طَلَبَتْ سَالِيَّةَ
بِيْرَةً ثُمَّ أَشْعَلَتْ سِيْجَارَةً بِيَدِيْ مَرْتَجِفَةً. فَتَحَتَّ دَفْتَرَا. قَرَأَتْ سَطُورَتَهَا ثُمَّ
وَضَعَتْهُ فَوْقَ الطَّاولَةِ. النَّادِلُ لَا يَكْفُ عنِ الْحَكْيِ. غَمْزَنِيْ مَرْتَينِ وَهُوَ
يَخْدُمُهَا. فَهَمَتْ مِنْهُ أَنَّهُ يَكْنِي الْحَدِيثَ مَعَهَا. تَكْتُبُ وَتَشْرُبُ. تَشْعُلُ
سِيْجَارَةً بِآخِرِيِّ. تَدْخُنُ بِعُمْقٍ. لَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِهَا إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الدَّخَانِ

الباht اللون مثل ضباب في الصيف. لا ييدو عليهما أنها من " هنّ ". أنها جرأة منها أن تشرب بيرة اذا لم تكن احداهن. لا شك أنها متحررة. طلبت لها بيرة. تشابكت نظراتها بيسي وبين النادل. شكرتني برأسها وبسمة عينيها. وبين كأسينا وسيجارتينا طلبت منها نظراتي أن أجلس معها. وافقت بسمتها خاضصة رأسها. الدفتر مفتوح. القلم فوق الصفحة نصف المكتوبة. لم تغلق دفترها عندما جلست جنبها. هذه جرأة أخرى منها. تبادلنا اسمينا. قالت إنها رأتنى في مديتها مع أستاذها في الصيف الماضي. كُنَا نشرب في القصبة وهي تأكل السردin مع كارولينا. اختلست نظراتي خاطرتها في دفترها. " مع من أذهب اليوم ؟ " أنا حائرة بين بقائي وعودتي. قد تكون لي كؤوس، هذه الليلة ، لكنني لن أتوسلها أو أخسر عليها. ان للشراب كرامته ."

في شقتي ، افتحت من حلمتها عينان متصبتان. تشرب كأسها كلما ملىء. تكتب في دفترها خواطرها. الفاعل عندها منصوب، والمفعول به مرفوع في معظم الأحيان. لم يكن عندي معظم الشعرا الكبار ، لكن عندي من قتلهم حب الشعر. لم يُغَرِّها أي واحد منهم. بَشَّرَتُهَا بِيَضَاءٍ ، لَكُنْهَا سَمِيكَةً وَمَشْدُودَةً ، مَزْرُوعَةً بِالْزَّغَيْبَاتِ الْمُشْرِبَةِ بِالسَّوَادِ . عيناهَا باسمتان اذا اشرحت ، ورموشها وارفة سوداء : أجمل ما فيها. شفتاها رقيقةان وشعرها المجدع ، قليلا ، تفوح منه رائحة أوراق فصول الخريف المقدسة أول ما ييللها المطر. أحيانا ، اذا هي لم تغسل أياما ، تفوح منها رائحة عنزة تمر. رائحة الشراب والتبغ دائمة في أنفاسها. تُشَهِّي اذا هي امترخت بعطرها القوي . ن GAMMA معاف في الفراش. وجهها دائما الى الحائط. وعندما اتفقدها أجدها نائمة على مضجع قاعة الجلوس معاقة مخددة صغيرة. لا بد أن أشتري لها دمية قرد أو دب. انها نائمة - يقطلة. تشعل سيجارة بأخرى كعادتها. في ليلة دخنت علبة كاملة. وفي الصباح كان مكتوب على دفترها : " حلمت أنني أسحق فراشة فإذا به طائر ينبعق من بين قدمي .

كان أبي يطاردني في بستان فسقط في بئر. جاءت أمي عريانة وصاحت: هنا القبر! ثم رقصت. أبي يستجده وأمي يُجتنبها رقصها ابتهاجاً. لقد أعيتها شيخوخة أبي الواهنة. إنها تحب رجلاً آخر."

سالية تكره شعاع الصباح في طنجة. غالباً ما تلبس ثوباً أسود. إنه يلائم بياضها. لست دارياً إذا كانت تعرف جمالها فيه. تحب ليل الشارع والحانات الصاخبة، ويقلقها الليل الوحدة والسكون. إنها تلعب في خيال الرجال. تغامر من أجل أن تملك أو لا تملك. لم يعد لديها ما تخسره. تتضاءل كل يوم. تتوزع بين من يعرفها ومن لا يعرفها. الأفواه تمسّها بشمن أو بدونه. في الصباح، قد لا تذكر إلا نبض الفراش وقلماً يُودعها سيد ليلتها.

جاءت إلى طنجة في غير أوانها. استطار عقلها. أنساها أسفلها أعلاها في ليل طنجة. تعلمت كيف تكذب وتصدق نفسها. لا يكذبها أحد لأن الذين تقاد لهم أكذب منها. أليس أن الكذابين يتازرون فيما بينهم مثل السكاري، ولهم مزاجهم الأقبح من الكذب اللطيف؟ سالية خانها شبابها، وفن العيش. فرقتنا الأهواء فصرنا نتراء في الحانات والمراقص. تتماس ولا تتواجه. كلنا له هواء، ولست السابق ولا اللاحق في حياتها. وظلّ عشقٌ مَا لا يمكن أن يكون هو الأقوى بيننا.

27

طنجيـس

يَحْكُونْ عَنْكِ : أَنَّ طِينَةَ الْخَلَاصِ مِنْكِ ،
 وَأَنَّ نُوحاً فِيكَ قَدْ تَفَقَّهَ الْأَمَانَ ،
 وَأَنَّهُ حَمَامَةُ ، أَوْ هُدْهُدٌ ،
 وَأَنَّهُ غُرَابٌ
 وَبَيْنَ مَوْجَتَيْنِ
 تَنَاسَكَ طَنَجَةُ مِلْءَ زَبَدِ الْبَحَارِ .

* * *

تَعَاقَبَتْ عَلَى بَكَارَاتِكْ
 مَبَاضِعُ الشَّبَقِ وَالْغُزَّةُ
 مَنَاسِكُ الْخَلُوكِ وَالتَّنَاسُخِ ،
 وَكَانَ عِيدُ بَاخُوسَ
 يُفَجَّرُ الْجَنُونَ فِي الْأَصْلَابِ ،
 وَالْهَذَيَانَ فِي ثُغَاءِ الْبَحْرِ ،
 كَأَنَّا طَرَوَادَةً يَرِثُهَا الْحِصَانُ ،

كَانَهَا فِي مَوْتِهَا عَرَوْسٌ
أَجَّجَهَا خَامِدَةَ زَيْوَسْ.

* * *

وَفِي الطَّرِيقِ تَحْوَى قَلْعَتَكَ،
أَنْبَثْتَ أَنْكَ الَّتِي تُشَبِّهُهَا أَرْكَادِيَا.
وَكَانَ أَنْ وَرَدْتُ تَبَعَّكَ الغَزِيرَ عَنْدَ الْفَجَرِ،
وَفِي قَمِي ثَنِيُّ مِنَ الْأَسْمَالِ.
وَفِي مَسَافَتِي طَعْمُ النَّفِيِّ وَالْوَبَاءِ،
أَفَقْتُ فِي الظَّهِيرَةِ.
فَاجَانِي الْمَخَاضُ فِي الرَّيْعَانِ.
أَحْسَسْتُ فِي الْوَرِيدِ شَيْئاً يُشَبِّهُ الْجَرْوَحَ وَالْيَفَاعَةَ.
أَكَلْتُ لَحْمَ الْجَنِيَّاتِ نَيْئاً.
وَفِي مَسَاءِ النَّقْعَ.
كُنْتُ حَفِيداً لِسْتُورِنْسُونَ الرَّجِيمِ.
فَلَا أَبْيِ إِبْرَاهِيمَ،
وَلَا أَبْيِ دِيدَالْوَسَ.
أَهْيِ لَعْنَةُ الْمُقَامِ فِيلَكَ؟
كِيفَ إِذْنَ أَرْتَحِلُ... وَأَنْتَ لِي مَتَاهَةً؟
وَلَسْتُ مِنْ رَحْمِ أَرْيَانَ وَلَا يَبْنِيلُوبَ؟
رَمْتِي الْأَمْوَاجُ فِي شَوَاطِئِكَ،
عَلَى حُدُودِ جُزْرِ الْمَرْجَانِ.
وَحِينَ مَدَ بَصْرِي نَحْوَكَ خِيطَ الْكَبِشِفِ
مَسَخْتَنِي.
هَلْ أَنْتَ مِيدُوزَا وَلَا أَعْرَفُهَا؟
وَهَلْ لِلْيَلِكِ الْكَفِيفِ شَهْرَ زَادُ؟

وهل له عشتاره العشيقه؟
والشبق المحموم في عيون ميسالينا؟

* * *

رأيتُ في عينيك كل نَزَواتِ العَقْلِ.
رأيت في عينيك شَهْوتَيْنِ:
مسافَةً الجَسَدِ في أَنْكِيدُو،
وطفَراتُ الرُّوحِ في كِيلِكَامِيشِ.
وَتَحْلِمِينِ بِرِبيعِ الْعُشُقِ أَنْ يَدُومُ.
وَتَحْلِمِينِ بِرِبيعِ الْعَمَرِ وَالرِّبِيعِ.
كُونِي كَمَا تَشَاءِينِ:
بَلْقِيسَ أو مَرِيمَ أو رَابِعَةَ الْأَلِيَّاَنِ!
كُونِي كَمَا تَشَاءِينِ،
إِلَّا الَّتِي أَنْتَ عَلَى صُورِتِها.

* * *

جَنَانُكِ الْخَضْرَاءُ بِالطَّرَاوِيسِ،
شَاطئُكِ الْأُسْطُوريِّ،
تَلَالُكِ الْوَرَديَّةِ،
أَطْلَالُكِ الْمُسْبِيَّةِ،
لَمْ تَنْسِنِي الذَّبَابُ وَالْمُسْتَقْعَدُاتُ وَالدُّرُوبُ الضَّيْقَةُ.
فَكُمْ رَأَيْتُ قَطْطًا - أَرَانِي! -
عَمَدَهَا الْعَرَابُ فِي الْبَيْعَةِ وَالْمَسْجِدِ وَالْكَنِيسَةِ.
يُغْمِدُهَا الْمُشَرِّدُونَ فِي تَخْوِيمِ الْجَمْعِ.
أَبْوَابُكِ الْخَرَسَاءُ كَالشَّطَّانِ مُوصَدَةُ،
وَنَحْنُ فِي عَرَائِنَا يَجْرِفُنَا الْمَطَرُ،

ونجح ع الدفء من الكحول،
كأن مانلمسه وباءً

* * *

يحكى عن كنوزك القديمة:
أن الغُرَّاء هَرَبَا أوَارَها.
يحكى أن حلمك البعيد،
يجيء خجلان ويضي رائعاً.
يحاور النفي الذي يحاصر المدى،
هُوَيَّةُ التيه الذي يبدأ حين يتنهى،
هُوَيَّةُ السقوط،
هُوَيَّةُ العزاء في الجُرح الذي لا يلتئم،
هُوَيَّةُ الغياب والقُمامَة.

* * *

في مطهر الفردوس والجحيم،
أجسادهم، أرواحهم،
رأيتها تُباع في الأسواق،
محظورة، مباحة، بابخس الأثمان،
أبعادهم، فضولهم، أكفانهم، فضولهم،
ويغثتهم،
وطمئنْتُهم،
تُباع في الأسواق في المزاد.
عين على البحر،
أُسْتَ على الحجر
أذن على الخبر.

